الشارع المغاربي
أسبوعية مستقلّة تحترم القارئ

افتتاحية

خاسر من انتصر...

بقلم : الصادق بلعيد

العدد 425 - من الثلاثاء 1 إلى الاثنين 7 أكتوبر 2024 - الموقع الالكتروني www.acharaa.com - البريد الالكتروني maghrebstreet@gmail.com

«العائلة» تقود الحملة الرئاسية

حياد ونزاهة وشفافية وقانون

بقلم : صالح مصباح

العفيف الأخضر ورسائله إلى التونسيّين

بقلم : أنس الشابي

حسين الرحيلي لـ «الشارع المغاربي» :

الحلّ لأزمة المياه يجب أن يشمل الفلاحة والصناعة والسياحة

خاسر من انتصر...

بقلم : الصادق بلعيد

اذا كانت بيدك مطرقة، فإنك عسى ان ترغب في استعمالها وإن كان ذلك بلا داع محدد. واذا اعطاك زميل لك مفتاح سيارته، فتهرع لتشغيلها وإن كان ذلك بلا هدف: فوظيفة الآلة تخلق أية فرصة لاستعمالها ولو بلا منفعة قائمة. واذا كنت تملك مسدسا فائق الجودة، فلعلك تجد بلا تروّ مناسبة ما لاطلاق الضربة الأولى: لكنك سرعان ما ستتفطن في آخر المطاف الى أن هذا «النجاح» سيكلفك «خسارة عمر»...

إن في هذه الاحداث المبتذلة، عبرا ودروسا تصلح للحياة اليومية، ولكننا نجد أيضا لها تطبيقا في مناسباتأخطر يحفظها التاريخ فيتّعظ بها العاقل... ويتجاهلها الأحمق. هنا، يذكر المؤرخون والمفكرون قصة الملك اليوناني «بيروس» الذي خاض حربا ضروسا ضد الرومان لم ينتصر فيها عليهم الا بأعجوبة وبعد ان تكبّد خسائر فادحة في الأرواح والعتاد، جاعلا من انتصاره أشبه بالهزيمة، بمعنى ان كلفة «انتصاره» كانت أعظم من الانتصار نفسه.

وسنجد شبها بين الأمثلة المذكورة وبين الواقع المؤلم الذي نعيشه اليوم: نقاط مقاربة مع المغامرة الإجرامية التي يقودها العدو الصهيوني منذ عقود وتوّجها بفعلته الجهنمية في فلسطين وفي لبنان وسوريا وغيرها من البلاد العربية، مثلما سنثبت ذلك في ما يلي.

*- نحن امام كيان دخيل على الوطن العربي احتل قطعة منه بالقوة وبانتهاز حالة ضعف. ثم هو توسع فيها بالقوة والظلم خلال العديد من الحروب والاعتداءات على الشعب الفلسطيني وعلى كل الشعوب المجاورة له. ومن المسلمات التاريخية ان هذا الكيان استغلّ تعاطف البلاد الغربية بعد مأساة «المحرقة» النازية التي جعل منها «أصلا تجاريا» مربحا يجني به الأموال الضخمة والمساندة السياسية والديبلوماسية والعسكرية غير المشروطة، وخصوصا بالإعانات العسكرية اللامحدودة والأكثر تطورا بذريعة واجب اعانة الكيان الصهيوني على الدفاع عن النفس ضد الأعداء و»الوحوش» العربية المحيطة به(والكلام لأصحابه). وعلى أساس هذا التفاهم، قام الكيان الصهيوني بمحاربة جميع العرب، وفي كل نزاع ينتهز الفرصة للاستحواذ على قطعة أخرى من التراب العربي الى حد انه أعلن اعتزامه اقتحام المنطقة كلها من «البحر الى النهر» وربما أكثر من ذلك. ولبلوغ هذه الأهداف، قامت الحكومات الصهيونية المتتالية بتكديس الأسلحة بجميع أنواعها التقليدية منها والنووية والى حد ان أصبح هذا الكيان ذو الحجم المتواضع (9 ملايين نسمة في رقعة ترابية بـ 20700 كلم مربع- للمقارنة: تونس: المساحة 167.000 كلم مربع، السكان: 12 مليونا) واحدا من اقوى الدول في العالم عسكريا يتمتّع بحرية كاملة في سياسته الخارجية والدفاعية والهجومية وبالمساندة المطلقة من الدول الغربية وخصوصا الولايات المتحدة وكذلك بإعفائه من قيود التشريع والقضاء العالميين. واذا كل هذه الإمكانات السياسية والعسكرية اللامحدودة واللامشروطة كرّست في خدمة طموحات جهنمية وايديولوجيات رجعية ومتخلفة وبين يدي حكومة متطرفةيرأسها سياسي مطلوب للعدالة في بلده وامام القضاء الجنائي العالمي، الذي دفعته حماقته الى الإعلان يوما امام الجلسة العامة للأمم المتحدة في لهجة تحد وغطرسة ملفتة وكأنه انتشى بسحر لغوه،انه احرز انتصارا مشهودا على «الوحوش».

*- هنا، يظهر وجه المقارنة بقصة انتصار الملك «بيروس»: فهل حقا، انتصر العدو الإسرائيلي انتصارا لا نظير له، أم انه ضّلل فكره بتجاهل المعطيات الواقعية والحقيقية التي تثبت ان هذا الانتصار ما هو الا هزيمة مشهودة؟ فلنرصد قائمة هذه «الانتصارات» بدقّة حتى نتبيّن افلاسها.

*- إن أول «نجاح باهر» سجّله الكيان الصهيوني كان دفع الدول العربية الى القيام بمبادرة دولية غير مسبوقة ستدعى اليها كل دول العالم – وليس الدول العربية، فقط، وفي ذلك عبرة واضحة – لإنشاء «تحالف دولي جامع» لإقرار الإنشاء والاعتراف بدولة فلسطينية حرة ومستقلة وذات سيادة في إطار القرارات الأممية وفي حدود 1967 وتكون عاصمتها القدس الشرقية وتكون كاملة العضوية في المنتظم الأممي. ومن الواضح ان المأساة الحالية تسبّبت في تحسيس اكثر من ثلثي أعضاء الأمم المتحدة لهذه القضية العادلة واستعدادها للمشاركة في «مؤتمر الرياض الدولي» الذي دعت اليه المملكة السعودية.

*- ثاني « نجاح باهر» للعدو الإسرائيلي يتمثل في انجاز ما يجب تسميته «مجزرة القرن الحادي والعشرين» التي، رغم همجيتها لا نضير لها اليوم، تسبّبت في استفاقة قوية للشعب العربي امام الخطر الإسرائيلي المتمثل في سياسته التسلطية والتوسعية واللاإنسانية والتي اصبحت حافزا كبيرا للنهوض الجماعي في سبيل الدفاع عن الوطن كمجموعة واحدة وموحدة،ما بيّن للشعب العربي ان تفرقة الشعوب خير وسيلة لتمكين العدو من انتهاز الفرص السانحة لاستحواذه على الكل العربي بأقل تكلفة.

*- ثالث « نجاح باهر» سجّله العدو الإسرائيلي في هذه الأشهر الأخيرة هو التفطن العالمي لحقيقة المأساة الفلسطينية العميقة والى أن هذا العدو تجاوز حدود استعماله لـ»حق الدفاع عن النفس» ليجعل منه أداة لدعس حق الشعب الفلسطيني والشعوب العربية تباعا ولطمسه نهائيا. وإن أبرز شاهد على هذه الاستفاقة هو انقلاب الرأي العام العالمي على السياسة الإسرائيلية وعظيم خطورتها على المستوى العالمي، مما تسبب في تنظيم العديد من الشعوب المؤثرة عالميا المظاهرات والاحتجاجات الشعبية لمساندة «القضية الفلسطينية» العالمية. وكما يثبت التاريخ المعاصر، فإن هذه التحركات الشعبية الهائلة والتي تذكّرنا بقرب انتهاء الأزمة بانخذال القوات السلطوية والاستعمارية في الجزائر الشقيقة وفي فيتنام والتي كمثلها انتصرت بفضل تجنيد النخب الاجتماعية المتقدمة والأكثر وعيا سياسيا والأقوى حزما.

*- رابع «نجاح باهر» سجّله العدو الإسرائيلي ضد هذه الملحمة التحررية العربية سيضرب ضربة قاسية ذات المجال الإعلامي العالمي بجميع انواعه الذي هيمن عليه هذا الكيان منذ عقود وجنّده لخدمة مصالحه بالصورة التي يختارها ولتقديم صورة مسيئة ومشوّهة للقضية الفلسطينية. لكن حقيقة المأساة الفلسطينية ومعالجتها المتشيعة في وسائل الاعلام الوطنية والعالمية انكشفت اليوم بكل وضوح الى حد ان الرأي العام العالمي غيّر موقفه بشكل لافت ومؤثّر لصالح حقوق الشعب الفلسطيني والعربي عموما، والإشارة الدامغة عن ذلك هي مغادرة ممثلي أكثر من 170 دولة الجلسة العامة لمنظمة الأمم المتحدة بشكل جماعي وفوري حالما بدأ رئيس حكومة الكيان الإسرائيلي خطابه السنوي.

*- وإن خامس « نجاح باهر» سجّله العدو الإسرائيلي في حربه على الشعب الفلسطيني يتمثّل في ضربة قاسية غرسها رئيس الحكومة الصهيونية بنفسه في صميم الكيان الصهيوني بالذات، وذلك للاعتبارات التالية: *- لقد كانت إسرائيل دولة مشهود لها بأنها افتصاد وطني متقدم، حداثي وعصراني، مكّنها وزنها الاقتصادي وثقلها السياسي من الانصهار في قائمة البلدان الأكثر تقدما وحيويته. وبالرغم من صغر حجمها السكاني، فإنها صنّفت في الدرجة الثانية بعد الولايات المتحدة من حيث عدد الاختراعات العلمية وتسجيل البراءات العلمية والعلامات التجارية وتقدمها في مجال تكوين المشاريع العلمية الجديدة والشركات الناشئة والواعدة. لكن، الشيء الذي لم تحسب له القيادة الحالية للبلد حسابا – أو، هي خاطرت به - هو ان الاقتصاد الإسرائيلي بصدد الاضمحلال بحكم توجيه الاعتمادات المالية الضخمة للجيش وللتسلح والحرب، فتسبب ذلك في انتشار البطالة وتقلص النمو الاقتصادي وجنّدت مئات الألاف من الشبان ومن النخب العامية والتقنية في سبيل الخدمة العسكرية وما قد يتبعها من مآس وتوجه العديد منهم الى «نزوح الأدمغة» والهجرة، البعض منهم بلا رجوع. كل هذا يقع بلا حساب وبإعطاء الأولوية الى الأهداف العسكرية والى التخريب والتدمير من دون ضمان أي نفع أو أية مصلحة ومن دون إمكانية تفادي كل الخسائر الاقتصادية والاجتماعية الهائلة التي ستتطلب سنوات وسنوات وتتجاوز بكثير تكلفة مغامرتها العدائية الرعناء، أي ما سيقارب نفس الأضرار التي يأمل الكيان الصهيوني ان يتحملها الشعب الفلسطيني. فهل راجع الملك «بيروس» حساباته، وهل حقّا كانت مغامراته مربحة او مفلسة ؟؟؟؟ .....

«العائلة» تقود الحملة الرئاسية

كوثر زنطور

انتظمت يوم امس الاثنين 30 اكتوبر 2024 جملة من التحركات الميدانية ضمن حملة المترشح للانتخابات الرئاسية قيس سعيد، باشراف الثلاثي نوفل سعيد مدير الحملة وشقيق المترشح، وعاتكة شبيل شقيقة زوجة المترشح وفخري شبيل شقيق زوجة المترشح، ويمنح هذا المشهد الكثير من الصدقية لما يتناقل منذ فترة حول تنامي «دور» العائلة السياسي والانتخابي وقيادتها مختلف تفاصيل الحملة الرئاسية.

نشر مشاركون في الانشطة المنتظمة يوم امس صورا وفيديوهات عبر مواقع التواصل الاجتماعي تظهر الحضور اللافت لثلاثي العائلة الرئاسية، الاول «نوفل سعيد» الذي كان ايضا ضمن فريق حملة قيس سعيد في انتخابات 2019 التي ترأسها خلال الدور الثاني عبد الرؤوف بالطبيب فيما لم يسبق ان ظهر الثنائي «شبيل» في أية انشطة سواء رسمية او انتخابية او « نضالية» لا كمتطوعين ولا كفاعلين على الرغم من تداول اسميهما بقوة في مختلف ازمات « الشقوق» المعلن منها والخفية.

ونوفل سعيد، المحامي، هو رسميا مدير الحملة الانتخابية، وهو مهندس حملة تجميع التزكيات الشعبية، كما انه مخاطب «المفوضين» في الجهات بصفته مديرا للحملة، التي اعادته الى سطح الاحداث بعد غياب نسبي . للتذكير كان نوفل سعيد ناشطا على مواقع التواصل الاجتماعي خاصة في الاشهر الاولى لما بعد 25 جويلية 2021 ثم ابتعد اثر انتقادات واسعة لنشاطه التفسيري للقرارات والاجراءات الصادرة عن « الاخ الرئيس».

الخروج للعلن

نهاية شهر فيفري 2022، شن «شباب المشروع» او المتطوعون في «حملة قيس سعيد التفسيرية»، اضراب جوع بمقر صغير يقع وسط العاصمة تونس، كان قد احتضن اجتماعات الحملة خلال انتخابات 2019 الرئاسية . لم يتسرب الكثير عن أسباب اضراب الجوع وغضب شباب الحملة. اكثر ما تردد في تلك الفترة حول خلفيات هذا التحرك، انه جاء كاحتجاج على التعيينات وعلى تدخل العائلة.

استمر اضراب الجوع لايام حتى قرار رفعه بعد تدخل من والي تونس آنذاك كمال الفقي الذي كان له ثقل معنوي على الشباب يذكر له فرضه بقاءهم في الواجهة يوم الاحتفالات بالفوز في السباق الرئاسي وذلك بعد أن وقع ابعاد عدد منهم من قبل مجموعة ضيوف، لم يكن أي من الحاضرين يعرف افرادها وتبين انهم «أقارب الرئيس» ..كان ذلك الظهور الأول وحافظت العائلة من وقتها على مسافة من القصر بحرص من الرئيس سعيد خليفة رئيس (الباجي قائد السبسي) كاد ان يستنسخ تجربة «الطرابلسية».

نوفل سعيد خلال نشاط انتخابي في العالية من ولاية بنزرت

كانت بداية بروز العائلة في بعض التعيينات في حكومتي الفخفاخ ثم المشيشي خصوصا بالنسبة للقضاة المعينين وزراء . توسع بعد ذلك الحديث عن العائلة تدريجيا بعد 25 جويلية 2021 وخاصة خلال الصراع بين توفيق شرف الدين وزير الداخلية ونادية عكاشة مديرة الديوان الرئاسي انذاك والذي انتهى لفائدة شرف الدين بفضل دعم العائلة.

ورافقت الحملة الانتخابية الحالية منذ فترة تجميع التزكيات، بوادر انشقاقات جديدة بسبب الإدارة العائلية للحملة. ففي رده على سؤال يتعلق بأسباب الخلافات داخل حملة المترشح سعيد، اجاب احمد شفتر احد مساندي سعيد في تصريح للإذاعة الوطنية، بالتقليل من أهمية هذه الخلافات وقال في رسالة الى «أبناء المشروع» بان من يقودون الحملة اليوم سيقومون بدورهم و«يشدو ديارهم».

وقد يكون شفتر من القلائل الذين واصلوا النشاط في الحملة من «جماعة المشروع». والواضح ان التنسيقيات السابقة ، بغض النظر عن مدى مساهمتها في إيصال سعيد الى قصر الرئاسة عام 2019، انتهت بعد قرارات الاقالات التي شملت جل المسؤولين المعينين من أبناء المشروع من وزراء وولاة ومعتمدين. والمتأمل في سيرورة الاحداث اشهرا قليلة قبل الحملة، يدرك ان مشهدا جديدا كان بصدد التشكل لاعداد العدة لانتخابات مصيرية بكل المقاييس للرئيس سعيد.

العودة الى سيرورة كواليس الانتخابات وتطوراتها تشير أيضا الى ان المشهد يوم امس في معتمدية العالية ببنزرت او في معتمدية عين دراهم التابعة لولاية جندوبة او في الكاف لافراد من العائلة يتصدرون الحملة الانتخابية قد يكون بمثابة الخروج للعلن للثلاثي الذي ينسب اليه دور في تجميع التزكيات البرلمانية وفي التنسيق مباشرة مع النواب وتنسب اليه تعديلات القانون الانتخابي وعقد اجتماعات مع نواب لتمريره بأغلبية واسعة وفي اختيار المفوضين بالجهات وحتى في علاقة ببعض الصفحات الداعمة.

الذاتي يغلب الموضوعي

لا يمكن ان ينظر الى ظهور ثلاثي العائلة يوم امس على انه نشاط عادي لمواطنين لهم كامل الحرية كناخبين في المشاركة في الحملة ميدانيا لدعم مرشحهم في حملته الانتخابية او ان دورهم انطلق في الحملة وسينتهي بمجرد انتهائها. فالتخوف الذي قد تثيره صور نزول عائلة بثقلها للحملة اكثر من مشروع على الأقل بالنظر الى التجارب السابقة.

ففي الماضي القريب، كان حافظ قائد السبسي، نجل الرئيس الراحل الباجي قائد السبسي، متواجدا بشكل خجول في كواليس تأسيس حزب نداء تونس منذ ان كان فكرة، ثم اصبح مرافقا للاب، تجده في أروقة الحزب وفي بعض مكاتبه ولا يشارك البتة في اية اجتماعات وليست له اية عضوية في هياكل الحزب الى حين اقتراب موعد حملة الانتخابات بشقيها التشريعي والرئاسي.

تطور حضور نجل الرئيس، مثلما كان يسمى، داخل الحزب حتى كشف عن طموحات سياسية تسببت في شرخ اثر رفض عدد من قيادات «نداء تونس» ترشحيه على رأس قائمة الحزب الانتخابية بتونس 1 وانتهى الضغط بفرض التراجع عن هذا الترشيح قبل ان يتجدد عندما تم تعيين نائب عن دائرة المانيا ضمن التركيبة الحكومية بما يفسح المجال لابن الرئيس المدلل للدخول الى البرلمان من بوابة انتخابات جزئية في المانيا، وربما ترؤس البرلمان ولم لا خلافة الاب على رأس الدولة بعد ان تم قبلها توريثه الحزب.

بقية القصة معروفة وخلاصتها معلومة. فقد ضاعفت الحساسية المطلقة من أي دور للعائلة وعززت المخاوف من تداخل العائلي الخطير بالدولة وأجهزتها وهذا من صميم شعار «لا عودة الى الوراء» الذي رفعه عاليا الأستاذ نوفل سعيد في خطابه الحماسي يوم أمس بمنطقة العالية ببنزرت لحشد الاصوات لفائدة المترشح قيس سعيد.

كما زادت صور يوم امس من الانطباع السائد، بأن كل شيء اصبح مباحا في هذه الانتخابات حتى الحرص السابق على ابعاد العائلة من المشهد الرسمي. وكان رئيس الجمهورية قد تطرق في احد اجتماعات مجلس الوزراء بطريقته الى ما يتناقل حول تنامي دور للعائلة، ونفاه بشكل غير مباشر منذ اكثر من عام.

قد يفسر هذا الحضور العائلي الهام في سلسلة الاجتماعات الشعبية بخصوصية هذه الانتخابات بالنسبة الى المترشح قيس سعيد وهو سباق كان قد وصفه بمعركة بقاء او فناء بما قد يجعله يُغلب قاعدة الثقة المطلقة في الاختيار على أي معيار او قاعدة أخرى. ربما لقيس سعيد مبرراته المتأتية من مخاوف ومن تجارب انتهت بطعنه من الخلف ممن اصطفاهم وعينهم في اعلى المناصب، لكن مهما كانت الأسباب لا تبدو صورة العائلة وهي في موقع صدارة الحملة الانتخابية إيجابية باي شكل من الاشكال خصوصا ان الثلاثي العائلي كان مرفوقا بنواب صادقوا للتو على تنقيح القانون الانتخابي أسبوع تقريبا قبل يوم الاقتراع، لقبر احكام باتة صادرة عن المحكمة الإدارية.

حياد ونزاهة وشفافية وقانون

صالح مصباح

لم يأت الدهر بانتخابات كالتي تجري اليوم في بلادنا ولن يأتيَ. فهي لا تحمل من شرائط الانتخابات إلا اللفظ الذي يحيل عليها إحالةً اقتضاها وجوبُ تعيينها، وفَرَضَها التّداول الذي تَوقّعَ أصحابُه أن تحمل من تلك الشرائط مقدارا، ولوكان عُشُرَها. فهو مقدار ألفناه انتخابيا وأَلِفَنا. إلا أن هذا المقدار، على ضؤولته،» تبخر» في هذه التي نسميها اضطرارا انتخابات، وحلت محله أشباه المساخر، أو هي المساخر.

المسخرة1: قانون المنديل الورقي

جاء الفصل 3 من القانون عدد 45 لسنة 2024 الذي صوت عليه البرلمان يوم 27 سبتمبر 2024 كما يلي:» تنطبق أحكام هذا القانون على النزاعات التي تَمّ البتُّ فيها أو التي لا تزال جارية والمتعلقة بالانتخابات الرئاسية لسنة 2024 مهما كانت الجهة المتعهدة بها أو التي لا تزال متعهدة بها في أي طور من أطوار التقاضي».

لو قال اليوم أحدهم إني رأيت بأم العين غولا يعزف رابعة «بتهوفن»على كل الآلات لكان قولُه أصدقَ مِن أنّ نصّ هذا «القانون» هو نصّ قانوني. ففَصله الثالث المذكور هو إطاره الذي يتنزل فيه. ذلك أن الأصل في القوانين هي تجريد تشريعي ينطلق من سياق نوازل، فَتَنقاسَ عليه الوقائع انقياسا قضائيا يمتدّ في الزمان من امتداد النّوازل التي تجلوها النزاعات والدعاوى. وعلى مقدار الإحكام في النص القانوني يكون امتدادُه في الزمان وامتدادُ استغنائه عن التنقيح أو النسخ. لكن هذا القانون هو مسخرة يثبتها فصله الإطاري إثباتا باتا. فهو على قياس حال محددة دون سواها، أطرافا وجهات وأهدافا، وهي النزاع بين المحكمة الإدارية وهيئة الانتخابات والملفات التي بينهما. هو قانون منسوج من خيوط هذا النزاع نسجا دقيقا محددا مفضوحا. هو ليس من أجل تطبيقه على القضايا، وإنما مُطبَّقَةٌ عليه قضيةٌ محددة. فهو على مقاس المقاس. وعليه فجدواه التشريعية تقتصر على نزاع الحال دون سواه، وهو خدمة مرشح السلطة دون سواه. كما تقتصر جدواه على الوضع الانتخابي الراهن الخاص بذلك المترشح دون سواه في هذا الظرف وهذا النزاع دون سواهما. فهو قانون كالمنديل الورقي الذي يستعمل مرة واحدة.

ثم إن عناصره اللغوية المحدَّدة كل التحديد هي عناصر حُكم قضائي وليست عناصر نص قانوني. فالبرلمان قد كف عن كونه جهة تشريع. لقد صار جهة قضائية. إنه مسار دولة القانون والمؤسسات المتمايزة والسلط المتفاصلة. أو هو زمن الفوضى الخرّاقة.

ثم إن البيان الذي أصدره في هذا الشأن جمع من أساتذة القانون العام والعلوم السياسية يسقط وجاهة ذاك «القانون الورقي» ويفتح أبواب الاضطراب الفاحش في نظامنا القانوني.

المسخرة 2:الفاروق الصَّدوق

سبق أن لنا أن رجونا فاروق الانتخابات بأن يكف في شأن هذه الانتخابات عن عبارات « حياد وشفافية ونزاهة وقانون». لكنه أبى إلا أن نسطع رؤوسنا على أقرب جدار لنا. قال مؤخرا في شأن هذا القانون الورقي: «هيئة الانتخابات أبدت رأيها في تنقيح القانون الانتخابي وهي لا تتدخل في السياسة». ولعل خير

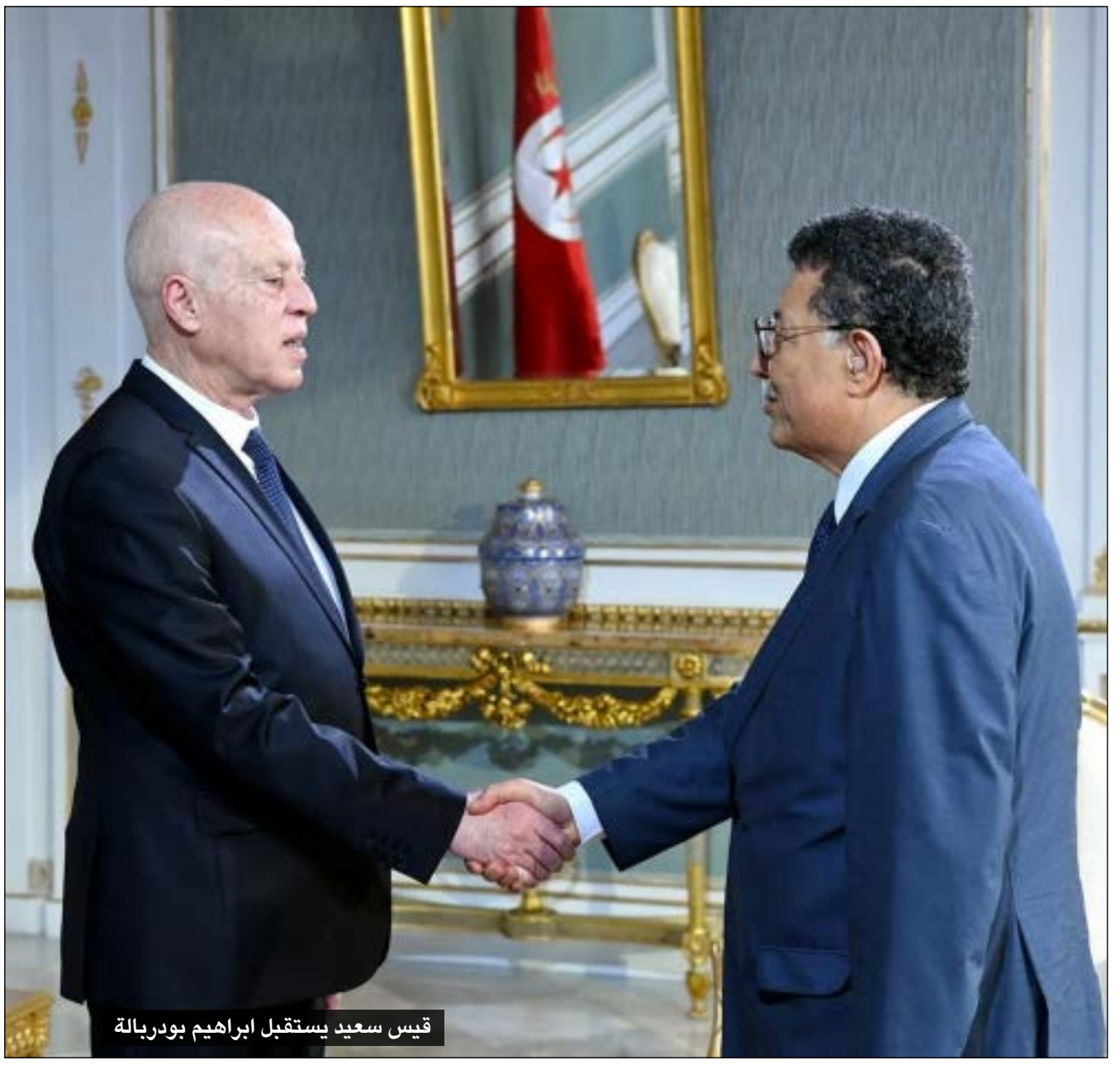
قيس سعيد يستقبل ابراهيم بودربالة

ما نقول ها هنا هو: اِبحَث عمّن يصدقك، فلن تجده حتى بينك وبين نفسك. وقال الفاروق أيضا:» سنبرهن للعالم ولتونس حرصنا على تطبيق القانون».

إن كل سامع لهذا القول ذي نظر، سيقول لهيئة الفاروق:» لو صرتَ الفاروق عُمَرَ،وفق المروي عنه، لما برهنتَ على ما تقول، لأن ما سبق أن قمتَ به مُجمَع على أنه قد مَحا محوا كل أسباب البرهنة. وما بقي هو استتباع لن يغير من الأمر شيئا.»ففي الصيف ضيعتِ اللبن». لقد جعلتَ من الهيئة أداة لمسخرة انتخابية أمضى على إثباتها نحو المائة من أساتذة الاختصلص.

المسخرة 3: الثنائي الفهيم

قبلت هيئة الانتخابات ترشح المغزاوي والزمال قبولا مشروطا بدوري الكمبارسين الذين يتزين بهما فوز المترشح الرسمي. ويبدو أن المغزاوي فهم الدور فقبله فبقي طليقا. لكن الزمال توهّم – أو أوهموه- بأنه مترشح رسمي ومنافس فعلي. والحصيلة تدميره تدميرا حقودا مؤسفا. ولعل الرجلين لم يتوقعا أن تنحرف العملية الانتخابية كل هذا الانحراف الذي به لن ينال المغزاوي ولو صيتا يستثمره لاحقا، وكذا الزمان الذي وإن صوت له شعب تونس والصين، فإنه لن ينال الفوز لأن الأصوات التي قد يحصل عليها ساقطة سلفا بمقضي الفصل 161 الذي هو اليوم لَبُوسٌ له. لذلك فإن بقاءهما في السباق مسخرة. أفلا يحفظان بالانسحاب ما يُبقي لهما على قدرٍ مِن ماء وجهٍ سياسيّ وأخلاقي!؟.

المسخرة 4: «اتحاد» الموتى

كم مرة يردد قادة الإتحاد العام التونسي للشغل أن للمنظمة»دورا وطنيا» لن تتخلى عنه ، وإن تاريخها من تاريخ هذا الدور. وعلى امتداد ثلاث سنوات من اقتضاءات اضطلاعها بهذا الدور، فإنها تخلت عنه تماما. وفي شأن هذه العملية الانتخابية التي هي قمة تلك الاقتضاءات، واصلت المنظمة الصمت ، لا بل الموت. وإذا لم تقم اليوم بدورها في قمة وجوب قيامها به، فإن عليها اليوم أن تنظم لنفسها جنازتها. لن يشيعها أحد.

لكن هذا» الإتحاد» أبى إلا أن يكون إحدى المساخر الجارية اليوم. فقد دعا إلى تحرك تنديدا باغتيال حسن نصر الله. ولا جدال في أن هذا الاغتيال حدث جلل يقتضي الغضب، إلا أن ما يبدو على الأرجح اغتيالا للجمهورية التونسية بناء على «الاختراعات غير المسبوقة»، كما جاء في بيان الأساتذة المشار إليه، إنما هو أولى بالغضب من ذلك الاغتيال. لقد وقع الاتحاد، في هذا الظرف الانتخابي الغريب، في مسخرة إحياء موته عبثا، بإستثمار موتة نصر الله.

حسين الرحيلي لـ «الشارع المغاربي» :

الحلّ لأزمة المياه يجب أن يشمل الفلاحة والصناعة والسياحة

نقل : خالد النوري

رغم تهاطل الأمطار خلال الأيام القليلة الماضية، فإن وضعية السدود لم تتغير. وحسب الخبير حسين الرحيلي الذي وصف الوضع بالمخيف ودعا الى ضرورة التوجه نحو بلورة حلول شاملة لأزمة المياه تضم مختلف القطاعات : الفلاحة والصناعة والسياحة. وانتقد في حواره مع "الشارع المغاربي" المعلن عنها مؤخرا، والتي تتعلق مثلا بتشييد 4 سدود جديدة مشددا على أن نسبة التبخر الكبيرة تفرض مقاربات جديدة ذكر من بينها تشييد سدود جوفية.

سي حسين كيف ترى وضعية المياه اليوم؟ فهل هناك تحسن وهل ترون ان هناك قرارات تجسّد سياسات جديدة؟ ام اننا لم نبلغ بعد حالة طوارئ حقيقية بالنظر الى خطورة الوضع حسب المرصد؟

من الواضح ان الامطار تتهاطل لكن وضع السدود مازال يراوح مكانه ان لم اقل ان الايرادات بصدد التراجع واليوم نحن في حدود 530 مليون متر مكعّب تقريبا ونسبة بـ22.8 بالمائة وهي نسبة مخيفة لان السدود تمثل مصدر ماء الشرب لاكثر من 6.5 ملايين ساكن لتونس و13 ولاية ونصف باعتبار ان ولاية صفاقس لم تخرج نهائيا من منظومة الشمال رغم دخول محطة تصفية مياه البحر منذ جويلية 2024 لكن بنصف طاقة انتاجها اي 50 الف متر مكعب في اليوم.

والنقطة الثانية اننا بدأنا نعيش منذ سنوات المظاهر القصووية لكن المظاهر القصووية للتحولات المناخية تظهر في اعادة توزيع الخارطة المطرية باعتبار ان الامطار تهاطلت منذ أواخر أوت ...صحيح ان هذا الخريف طيب ولكن الخريف هذه السنة "بدري" في خارج مناطق السدود وكانت الامطار مهمة في القصرين وسيدي بوزيد وصفاقس وقابس وبعض مناطق الشريط الساحلي والوطن القبلي والامطار مهمة كثيرا للزياتين وللاشجار المثمرة وربما لاول مرة يبدأ الخريف مبكرا في الجنوب... وهناك اودية لم تعرف السيلان منذ سنوات واليوم خلفت بعض الاضرار ولكنها سالت هذه السنة ونأمل ان تصل المياه الى الموائد المائية لانه كلما كان هناك نقص في المياه السطحية يكثر الضغط على مصادر المياه الجوفية

ماذا عن القرارات والمشاريع المعلن عنها مؤخرا؟

في ظل هذا الوضع كله لم تتغير السياسات العمومية والخطاب الرسمي تقريبا ليست

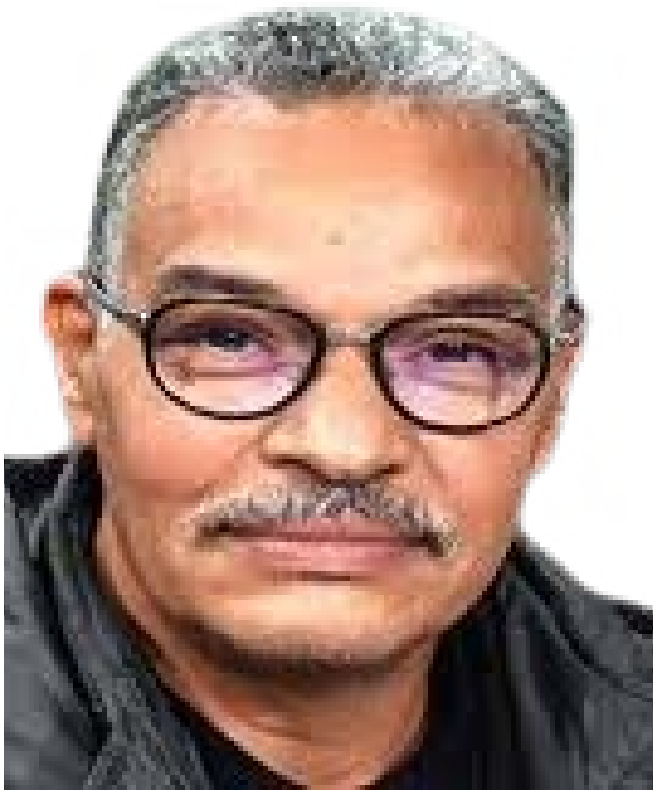

له الاهمية اللازمة ونحن في لحظة انتخابية تغطي كثيرا والصراع السياسي اكثر شعارات منه حضورا... ولكن لما نرى ونتابع قبل اسبوع كاتب الدولة للمياه يتحدث عن انجاز 32 سدا اعتبر ان المخططات في واد والواقع الذي نعيشه في واد واليوم تقريبا نسبة التبخر ومتوسط نسبة التبخر تبلغ 300 الف متر مكعب في اليوم وتبلغ في فصل الصيف 700 الف متر مكعب في اليوم ومن الغباء ان نفكر في اضافة سدود جديدة اولا لتراجع كميات الامطار في المناطق التقليدية وثانيا أين سنبني هذه السدود؟ وبأية طريقة ؟ وكيف يمكن ان نحمي مياه هذه السدود من التبخر؟ لانه من غير المعقول ونحن بلد شح مائي ان نصرف اموالا طائلة لانجاز سدود تتبخر كميات كبيرة من مياهها فهذا غير معقول.. ونسبة التبخر ليست بالشيء الهين. ففي الصيف تبلغ حوالي 50 بالمائة من المياه التي يشربها التونسيون في يوم واحد... اذن اليوم من الضروري ان تتغير السياسات العمومية والمقاربات تتغير ولم نر اية مقاربة ...فهل هناك اعلان عن حالة طوارئ مائية على الاقل لمن تضرّروا من تواصل الجفاف ومن ايقاف ضخ السدود وعائلات بالكامل في المناطق السقوية احيلت على التقاعد الوجوبي واعتقد ان الوضع يتطلب مقاربة جديدة ونظاما جديدا في المجال المائي فالماء ليس مشكلة ظرفية والمسألة معقدة ومرتبطة بحياة الناس وبالتنمية وبالتالي فإن المقاربات القديمة والتقنية مثلما هو الحال الآن في ادارات وزارة الفلاحة التي تبقى مقارباتها تقليدية غارقة في التقنية وتقتصر على فتح فانة وغلق اخرى لكن التصور والاستدامة وتجاوز الشح المائي والتنويع واعادة هيكلة المنظومة المائية كل هذا غير موجود والمقاربة تقليدية جدا...

كيف تأثرت الفلاحة بأزمة المياه ؟

من يقوم اليوم بجولة في هنشير "الشعّال" سيحزن لان كميات كبيرة من الزيتون احمرّت رغم قدرته على التأقلم وزيتون الجنوب كذلك رغم قدرته على التأقلم منذ مئات السنين وقد شاهدنا اليوم تأثيرات التغيرات المناخية وانحباس الامطار على الزيتون خاصة ان 80 بالمائة من زياتيننا بعلية و92 بالمائة من فلاحتنا بعلية مطرية... والفلاحة السقوية لا تمثل سوى 8 بالمائة وبالتالي نحن اليوم نستنزف كميات كبيرة من الماء في مساحات فلاحية صغيرة مقارنة بالمساحة الكبرى للفلاحة ولذلك قلنا إن اعادة النظر واعادة تحديد الاولويات في المجال الفلاحي وفي استعمالات المياه في المجال الفلاحي يهدف الى تمكيننا من تحقيق حاجاتنا الاساسية من المياه وكفانا من الانتاج للتصدير وعقلية الانتاج للتصدير التي كانت متفشية خلال التسعينات والثمانينات ولم تعد تلزمنا وينبغي الحفاظ على كميات المياه المتوفرة وتحقيق ما يسمى بالسيادة الغذائية ونعمل على تحقيق الاكتفاء الذاتي من الحبوب خلال

السنوات الخمس او العشر القادمة وكلها تندرج ضمن سياسات مندمجة مرتبطة بتصور كامل مرتبط بالماء.

ما دامت السدود لا تمثل حلا وتكلفتها باهظة ولنا مشكل تبخّر فما هو الحل؟

الطبيعة وفرت لنا الكثير من الامكانيات ويمكننا انجاز سدود جوفية حيث تسمح لنا الطبيعة بذلك... وتكلفة السدود الجوفية تمثل 1 بالمائة من تكلفة سد وهي عملية تهيئة للفضاء بسطح الارض بطريقة تسمح بوصول الماء للمائدة المائية.. عملية ميكانيكية بسيطة يمكن القيام بها حيث تسمح لنا الجيولوجيا بذلك ولنا امكانيات كبيرة في مناطق الوسط ومناطق الجنوب الغربي وبعض مناطق الساحل وكذلك لنا امكانية ما يسمى تجميع المياه في أحواض ما يسمى بالتجميع الوقتي للاحواض التي تقوم بتغذية المائدة المائية عبر التغذية الاصطناعية.. والعلم يمكنّنا اليوم من امكانيات كبيرة للحفاظ على كل قطرة ماء مثلما كان يفعل اسلافنا واليوم نحن لنا هدر مائي في المنازل وفي المدن ولما تتهاطل كميات كبيرة من الامطار كل المياه تتجه للبحار والوديان ويتم تبخرها.. معنى ذلك انه ليس لنا تصور للموارد المائية كلها وينبغي تغيير المقاربة القديمة...

اليوم تطرح في اطار توجه تونس نحو الشرق امكانية اعتماد تقنية الاستمطار كحل ممكن. فهل هذا واقعي؟

تم التطرق لهذا الموضوع مع سفير اندونيسيا لا اعلم في اي اطار واصبحت قضية تعاون وما يجعلني اضحك ان مياهنا مهدورة في الارض ونسبة ضياع مياه قنوات الشرب حوالي 25 بالمائة وماء ضائع في المناطق السقوية معناها ملايين الامتار المكعبة من المياه المهدورة في الارض ونحن نبحث عن الحلول في السماء مع حلول بتقنيات معقدة تتطلب تقنيات علمية وتقنية كبيرة جدا مع نسبة نجاح لا تتعدى 50 بالمائة لدى الصينيين والامريكيين الذين يعتبرون الاكثر استعمالا لهذه التقنية فهل لنا اليوم الامكانات التقينة اللازمة للدخول في مثل هذا المجال ؟...

هل لديك فكرة عن الكلفة؟

> • نسبة امتلاء السدود مخيفة
>
> الحديث عن الاستمطار مضحك في بلد مياهه مهدورة في الأرض ونبحث عنها في السماء
>
> السدود الجوفية هي الحلّ لأزمة المياه

التكلفة كبيرة وتتطلب مبالغ ضخمة واطنانا من المواد يتم ضخها للسحب لتكثيفها وايضا هناك مواد يتم ضخها لدفع السحب الى الاماكن المرغوب فيها او طائرات نفاثة ضخمة ترتفع الى مستويات 6 او 7 كلم ليكون لها طاقة لضخ المواد الكيميائية او بخار السحب .. نظريا على مستوى البحث العلمي في الجامعات يمكن القيام بذلك على مستوى نماذج صغيرة في المخابر. اما على مستوى الاستثمار فالعملية مكلفة ومن باب اولى الاستثمار في تجديد القنوات وفي المحافظة على الماء الضائع وارساء سياسة مائية واضحة .

كيف تؤثر هذه الأزمة على الاقتصاد خاصة أن السلطات المالية كانت قد فسّرت تدني نسبة النمو بالجفاف؟

الامر طبيعي... اذا كانت نسبة مساهمة القطاع الفلاحي في الناتج الداخلي الخام 11 بالمائة فكيف تتخيل أن تكون نسب النمو ؟ والماء هو التنمية .. والتركيز كله على مياه الشرب في الاستعمال المنزلي والحال انها لا تمثل غير 10 او 12 بالمائة من الكميات المستعملة على المستوى الوطني لكن اللعبة كلها في الفلاحة... و80 بالمائة من الماء ضائع في الفلاحة.

انا ادعو منذ سنة 2014 لايجاد وزارة سيادية اسمها وزارة المياه والري تجمع كل مصادر المياه في تونس ومن هنا يكون توحيد التصور فمن غير المعقول ان يوفر الديوان الوطني للتطهير 300 مليون متر مكعب نخسر عليها الاموال ثم نرميها في البحر. فنسبة استعمال المياه المعاجلة لا تتعدى 8 بالمائة واليوم المياه المعدنية تتبع وزارة الصحة وكأنّ الماء اليوم موزع بين عدد من الوزارات ... ينبغي ان تكون هناك وزارة واحدة يكون لها تصور واحد وتفكر تفكيرا واحدا وتكون لها رؤية واضحة وتحاول ان تتعامل بطريقة افقية مع كل الوزارات المستعملة للماء... وبهذه الطريقة يمكن ان نخلق تصورات ومقاربات جديدة...

اذا بقي الوضع على حاله كيف ترى الوضعية في الفترة القادمة ؟

سبق ان قلت ان نظام القطع الدوري لا يمكن ان يحل المشكل فلا يمكن الاقتصاد في ما لا تملك.. فنحن ليس لنا ماء.. لذلك ينبغي ان تكون الحلول جذرية ومهيكلة ومندمجة وان تشمل كل المعادلة وألّا يتم التركيز فقط على مياه الشرب ولم نسمع عن اجراءات تخص المياه المعدّة للصناعة والمياه المعدّة للفلاحة والمياه المستعملة في السياحة....

الشارع المغاربي
تصدر عن شركة «كوثر العالمية للاتصال» شركة محدودة المسؤولية

المؤسسة والمديرة المسؤولة
كوثر زنطور

مستشاران لدى إدارة التحرير برتبة رئيس تحرير :
معز زيّود - الحبيب القيزاني

كتّاب افتتاحيات :
الصادق بلعيد - حمادي بن جاءبالله - عز الدين سعيدان - نائلة السليني - ألفة يوسف - خالد عبيد - جمال الدين العويديدي- عبد الواحد المكني - رفيق بوجدارية - أحمد بن مصطفى - فوزي البدوي - زهير بن يوسف - مولدي الاحمر

مستشارو التحرير :
صالح مصباح - صلاح بوزيان - أنس الشابي - نهلة عنان - مسعود رمضاني - أسعد جمعة - عامر الجريدي

الملحق الثقافي :
منير الفلاّح - عواطف البلدي

الفريق الثقافي :
زهير بن يوسف - عبد الوهاب البراهمي - محمد الكحلاوي - أنور الشعافي - رضا القلال - الطيب الطويلي - هيام الفرشيشي - شفيع بالزين - علاء الدين السعيدي - خليل قويعة - الحبيب بيدة - محمد رضا البقلوطي - صالح السويسي - بهيجة بالربيع بنرقية

الريبورتاجات :
محمد الجلالي

التحرير :
منى المساكني - خالد النوري - تميم أولاد سعد - كريمة السعداوي - ياسين بيّوض

الشارع القضائي :
لطفي واجه

المدير الفنّي :
فيصل بن البشير

مكلفة بمهمة لدى إدارة التحرير:
هيفاء بن محمد

العنوان :
45 شارع آلان سافاري - 1002 تونس
الهاتف : 034 063 36 الفاكس : 065 890 71
www.acharaa.com
contact@acharaa.com

المطبعة: BETA i@beta.com.tn

العفيف الأخضر ورسائله إلى التونسيّين

أنس الشابي

في 27 سبتمبر الماضي عُقدت ندوة فكريّة إحياء للذكرى 11 لوفاة المفكر الكبير العفيف الأخضر بمشاركة عدد من الأساتذة الذين ساهموا بدراسات متنوّعة. أشرف على تنظيم اللقاء فضاء مسرح الريو ودار خريف للنشر وأدار جلسته الأستاذ نور الدين بالطيّب، ومن الجدير بالملاحظة أنّ هذه الندوة طبعت كلّ المداخلات في كتاب جاء في حوالي 130 صفحة تحت عنوان «قراءات في فكر العفيف الأخضر» اشتملت على الدراسات التالية:

* «العفيف الأخضر المعلّم المناضل» لكاتب هذه السطور.
* «العفيف الأخضر سيرة مثقّف حرّ ومسارات الفكر السياسي بتونس والبلاد العربيّة» لعبد الجليل بوقرة.
* «منزلة العفيف الأخضر» لمصطفى اللطيفي.
* العفيف الأخضر قارئا للتاريخ النبوي العالق» للمعز الوهايبي.
* «العفيف الأخضر من خلال رسائل تونسيّة» لحسونة المصباحي.
* « العفيف الأخضر مفكر استراتيجي أم مثقف عضوي؟ « للمنصف قوجة.

ومن الجدير بالملاحظة أنني لم أشاهد من بين الحضور أيّ وجه من الوجوه التي تدعي الانتساب إلى اليسار أو الدفاع عن الديمقراطية حاضرا أو مساهما حتى بالتعليق رغم أنّ المحتفى به من أبرز المناضلين على المستوى العربي من أجل التحرّر ومقاومة الخلط بين الدين والسياسة نظرا وعملا، وهو ما يفسّر الغيبوبة المعرفية التي عليها ما يسمى أقصى اليسار في تونس والمهانة التي يعيشها بالتبعية المطلقة لخصوم دولة الاستقلال.

فمن هو العفيف الأخضر؟ هو أحد كبار المناضلين ممّن مارسوا تأثيرا كبيرا في أجيال مختلفة منذ ستينات القرن الماضي بعد أن غادر تونس مستقرا ومشاركا في الثورات التي عرفها العالم العربي فانخرط في حكم الثورة الجزائرية مستشارا للرئيس أحمد بن بلة. وبعد انقلاب بومدين وهزيمة 1967 انخرط في الثورة الفلسطينيّة في شقّها الماركسي معلّما ومناضلا. كما كان له دور في اليمن الاشتراكي، في تلك الفترة ونشر عددا من الدراسات الماركسيّة أقدمها كتاب «من كومونة باريس إلى مجازر عمان» الذي شارك فيه بدراسة على غاية قصوى من الأهميّة حيث برز العفيف فيه كمساهم وليس كناقل في تطوير الإيديولوجية الماركسيّة وتطويعها مع الواقع العربي بعد هزيمة 1967، لتتتالى بعد ذلك دراساته وترجماته لأهمّ النصوص الماركسيّة من بينها ترجمته للبيان الشيوعي لماركس وأنقلز في أوّل ترجمة عربيّة غير مزوّرة مصحوبة بشروح وهوامش لضبط المصطلحات الواردة في البيان ومطابقة ذلك مع واقع البلاد العربية الإسلاميّة من خلال الاستناد إلى كتب التراث القديمة.

ومن أهمّ النصوص التي أشاد بها ترجمة نصوص لبنين حول الدين حيث قدّم لها بدراسة وافية عن الإسلام الدين والتراث، لم تتوقّف دراساته ومقالاته إلى أن توفي يوم 25 جويلية 2013 في مستشفى بباريس بعد أن داهمه المرض الخبيث لمدّة عامين. ورغم الآلام والأوجاع لم يتوقّف العفيف عن الكتابة من ذلك أنّ بعض كتبه نشرت بعد وفاته، ومن الجدير بالملاحظة أنّه درس في الزيتونة وهو ما مكّنه من الحصول على ثقافة دينيّة استطاع أن يثريها بتعلّمه اللّغتين الفرنسيّة والألمانيّة وإجادتهما إجادة كاملة ساعدته على الترجمة منهما إلى اللّغة العربيّة ومراجعة ترجمات البعض من رفاقه في تونس. بعد الاستقلال ساند العفيف الزعيم بورقيبة في كلّ الإصلاحات الاجتماعيّة التي صنعتها دولة الاستقلال من ذلك أنّه كان يشارك في القوافل التثقيفيّة لشرح مجلة الأحوال الشخصيّة.

كما أنّه وقف في صفّ بورقيبة في الخلاف مع بن يوسف ونشر في ذلك مقالا شهيرا في جريدة «الزيتونة» وصف فيه هذا الأخير بالمجرم الأكبر. وفي سنة 2000 ذكر في مقال له بمجلة «الملاحظ» أنّ من بين الأسباب التي دفعته إلى الوقوف في صفّ بورقيبة علاقة صالح بن يوسف بالمخابرات الفرنسيّة التي جنّدت أحد

أقرب الناس إليه «وزير داخليته محمد بن رمضان» وفق ما رواه له نور الدين بن محمود. بعد غربة زار فيها عددا من العواصم والبلدان استقرّ في باريس حيث قضّى بقيّة حياته وهناك كتب «رسائل تونسيّة» أحد أهمّ كتبه وهو في النزع الأخير.

بعد أحداث سنة 2011 نشر العديد من الرسائل المتعلّقة بما جدّ في تونس كشف فيها عن معرفة دقيقة بالوضع السياسي فيها موردا جملة من الاقتراحات الكفيلة بالمحافظة على الدولة أوّلا والقيام بانتقال ديمقراطي سلس يحفظ المجتمع من الهزّات ثانيا ومحذّرا ممّا يمكن أن تتعرّض له البلاد من أخطار إذا ساد خطاب الكراهيّة والانتقام بدل المصالحة الوطنيّة. ففي رسالة له وجّهها إلى عياض ابن عاشور رئيس الهيئة طويلة الذيل لمّا قبلت بإقصاء التجمّع الدستوري الديمقراطي ومنع منخرطيه وكوادره من المشاركة في الحياة السياسية طيلة عشر سنوات، حذّر من أنّ هذا القرار سيفتح الطريق أمام حزب الانتقام أي حركة النهضة إلى الحكم. يقول: «في الدول التي انتقلت من السلطويّة إلى الديمقراطيّة لم تُحلّ الأحزاب السلطويّة ولم يحاكم قادتها لا في أوروبا الغربيّة ولا في الشرقيّة ولا في أمريكا اللاتينيّة ولا في روسيا حيث ما زال كادر الأمس هو الذي يحكم اليوم... المحكمة الوحيدة التي حكمت عليهم هي صناديق الاقتراع».

وفي واحدة من إشراقاته يقول إن التجمّع «يشكّل كتلة سياسيّة جماهيريّة مكسوبة للمشروع الحداثي ويمكنها برصيدها الانتخابي أن تشكّل عقبة أمام فوز المشروع الطالباني (يقصد حركة النهضة) بالأغلبيّة في الانتخابات المقبلة (انتخابات 2014 وهذه الرسالة كتبت في 6 أفريل 2011)، فهي إذن حليف مضمون ومأمون للمشروع الحداثي». وقد أكّدت الأحداث في ما بعد أن منع الحزب الحاكم السابق من المشاركة في الانتخابات مكّن حركة النهضة من القفز إلى الحكم في انتخابات مشوّهة وغير عادلة. وفي رسالة إلى الباجي قائد السبسي بتاريخ 1 ديسمبر 2011 دعاه إلى إنجاز مطلبين لحماية تونس وإنقاذها ممّا يتهدّدها من أخطار: «مطلب المصالحة الوطنيّة الشاملة والفوريّة التي ينبغي على حزبك أن يجعل منها شعاره المركزي... ومطلب توسيع قاعدة النظام الاجتماعيّة بدمج النخب الجديدة فيه لتشارك في صنع القرار وفي السلطة والثورة».

يقول المنصف قوجة في دراسته: «ولكن العفيف الأخضر توفي سنة 2013 ولم يقدّر له أن يعيش إثبات تحليله على أرض الواقع في انتخابات 2014 التي أدّت إلى الفوز الانتخابي للكتلة الحداثيّة بزعامة الباجي قائد السبسي قبل أن يقوم هذا الأخير بخيانة ناخبيه والالتحاق براشد الغنوشي وحزبه لتقاسم كعكة السلطة كغنيمة حرب تحت عنوان (التوافق) الذي مكّن حركة النهضة من بسط نفوذها وتشديد قبضة أخطبوطها لخنق الدولة الوطنيّة وإسقاطها». ولحدّ اليوم ما زال مطلب المصالحة قائما وإن تغيّر القائمون على الدولة حيث نلحظ أنّ الحزب الوحيد الذي يحظى بالرعاية وينتشر خطابه اليوم هو حزب الانتقام والكراهيّة.

يقول العفيف في رسالة تحت عنوان «تونس جريحة فلا تجهزوا عليها» بتاريخ 5 ماي 2011: «كان المفروض من الهيئة (هيئة ابن عاشور) أن تكون أكثر اتزانا فلا تستخدم مع التجمعيّين DÉGAGE مثلما تفعل العناصر الأكثر تطرّفا في المجتمع التونسي من أقصى اليسار وخاصة من أقصى اليمين الإسلامي السياسي اللذين يعاديان الدولة مبدئيّا، سياسيّا عند أقصى اليسار ودينيّا عند أقصى اليمين كما يقول الغنوشي يفضّل (دولة أقلّ) أي فوضى أكثر» وهو ما نلحظ أنّه ما زال متواصلا بين الإسلام السياسي وبعض تنظيمات اليسار منذ أيام بن علي في هيئة 18 أكتوبر وفي ما بعد بالمشاركة المعلنة في حكومات النهضة أو بالاصطفاف خلفها ومساندتها في الانتقام من نظامي بورقيبة وبن علي في هيئة بن سدرين وفي غيرها مغفلين أنّ كوادر الدولة بما اكتسبوا من خبرة هم الأقدر والأجدر على القيادة وتسيير دواليبه.

وجاء في رسالة عنوانها «المصالحة الوطنية أو المجهول؟» بتاريخ 27 مارس 2011: «حزب الانتقام (يقصد حركة النهضة وما شابهها واليسار الطفولي) يهدّد تونس في وجودها كدولة بإصراره على التطهير وتفكيك الدولة والمحاسبة والاعتقال والمحاكمة محاولا قطع الطريق على المصالحة الوطنيّة الشاملة التي هي الاتجاه الصحيح للتقدّم معا إلى المستقبل» وذلك من خلال التحكّم في القضاء الذي هو حجر الأساس في بناء دولة القانون التي تحفظ الحقوق كاملة لمواطنيها وتمنع عنهم ظلم السلطتين التنفيذيّة والتشريعيّة. يقول العفيف في «رسالة إلى القضاة بتاريخ 18 أوت 2011: لا تخضعوا لقانون الغاب»: «القضاء غير ملزم إلا بواجبين تطبيق القانون والاستماع إلى صوت الضمير الأخلاقي... حتى لا يلتحق القضاء التونسي بالقضاء الإيراني والسوداني الأوّل يحكم بما أمر به المرشد والثاني لا تدوم محاكمته أحيانا أكثر من 5 دقائق؟».

إن المتأمّل في الرسائل التونسيّة يلحظ بجلاء أن النظام الذي استورد ونصّب لحكم تونس منذ سنة 2011 ما زال يتحرّك في نفس المربّع وبنفس المنطق والآليات. فقد كان من المفروض ان تتم المحافظة على الدستور الذي حرّرته نخبة متنوّرة درست في أرقى الجامعات وشاركت في الحركة الاستقلالية وألّا يتناوله التغيير إلا في بعض فصوله المتعلقة مثلا بدورات انتخاب رئيس الجمهوريّة. هذا الدستور وقع إلغاؤه لصالح آخر أوقع البلاد في أزمة حكم شلّت كل أجهزة الدولة ومنعتها من أيّ محاولة لاتخاذ أيّ قرار وهو ما دفع إلى إلغائه وتعويضه بدستور آخر لا يختلف عنه إلا في تجميع السلطات في أيدي رئيس الجمهوريّة وإضعاف بقية السلط التي أصبحت وظائف الأمر الذي أدّى إلى فوضى قانونيّة وسياسيّة نلمسها بجلاء في سير الانتخابات الحالية وأصبحت فوبيا السقوط في الانتخابات مشروعا سياسيّا تجنّد له كلّ المؤسّسات.

يقول العفيف في رسالة كتبت في 18 أفريل 2011 وكأنه يقرأ ما عليه تونس هذه الأيام: «دعاة الجمهورية البرلمانيّة وغالبيّتهم من المعارضة السابقة التي تضرّرت من النظامين السابقين لا يبرّرون شرعيّة مطلبهم ببراهين سياسيّة أو دستوريّة معقولة لسبب واضح: دافعهم ليس سياسيّا بل هو نفسي هو الرّهاب (فوبيا) من عودة بورقيبة آخر أو بن علي آخر، الرّهاب هو أحد أعراض العصاب الوسواسي الذي يشلّ العقل عن التفكير المنطقي جاعلا الرّهابي يتعامل مع موضوعه لا بالتحليل بل بالنفور القلق المستحوذ على المشاعر، مثلما هو الحال مع من يخشون الظلام أو ركوب الطائرة، ولا يجوز سياسيّا وأخلاقيّا تحويل خوف لامعقول جدير بالعلاج إلى مشروع دستوري يتوقّف عليه مستقبل أمة»، فلله الأمر من قبل ومن بعد.

TunisieValeurs
LA MAISON DE L'EPARGNANT

التقرير الأسبوعي لـ «التونسية للأوراق المالية» :

الـ BIAT يكتسح... SOTEMAIL تقفز وBTE يتراجع

منحى السوق

في ظل سوق أكثر دينامية من الأسابيع السابقة، أقفلت بورصة تونس للأوراق المالية الأسبوع الممتد من 23 إلى 27 سبتمبر المنقضي وسط أجواء تفاؤل (+ 2 ٪) لتستقر عند النقطة 9981،7. وبلغ أداء المؤشر المرجعي + 14،1 ٪ منذ بداية العام.

على صعيد التداولات ورغم غياب تبادلات بالكتل، تميز الحجم بزخم ملحوظ جامعا محفظة بـ 22،7 مليون دينار بما مثل معدّل حجم يومي بـ 4،5 ملايين دينار. وكان سهم بنك تونس العربي الدولي BIAT الأكثر تداولا على امتداد الأسبوع محتكرا حجما جمليا بـ 21،8 ٪. حسب تحليل الوسيط الرسمي ببورصة الأوراق المالية بتونس.

تحليل تطور الأسهم

- حقق سهم الشركة التونسية للتلا SOTEMAIL أفضل أداء خلال الأسبوع المذكور مسجلا قفزة بـ + 13 ٪ بسعر 1،300 دينار وسط مدّ مالي شبه منعدم.

- كان سهم الشركة التونسية للمقاولات السلكية واللاّسلكية SOTETEL ضمن أكبر الرابحين خلال الأسبوع المذكور مسجلا ارتفاعا بـ 11،3 ٪ بسعر 6،180 دينار وسط مدّ مالي بـ 465 ألف دينار على امتداد الأسبوع.

- كان سهم بنك تونس والامارات BTE أكبر الخاسرين وسجل تراجعا بـ - 10،9 ٪ بسعر 4،400 دينار وسط مدّ مالي زهيد.

- بجمعه أكبر حجم خلال الأسبوع المذكور بلغ 4،9 ملايين دينار كان سهم بنك تونس العربي الدولي BIAT الأكثر تداولا محتكرا لوحده 21،8 ٪ من حجم التداولات التي شهدتها السوق مسجلا قفزة بـ 8 ٪ بسعر 108،910 دينار.

مستجدات السوق

البنك المركزي يثبت نسبة الفائدة المديرية في حدود 8 ٪ :

عقد مجلس إدارة البنك المركزي التونسي اجتماعه بتاريخ 25 سبتمبر 2025 واستعرض خلاله التطورات الاقتصادية والمالية الأخيرة على الصعيدين الدولي والوطني، فضلا عن آفاق التضخم.

فعلى الصعيد الدولي، لا يزال النشاط الاقتصادي في الولايات المتحدة والصين متماسكا نسبيًا. ومن جانبها، استمرت منطقة الأورو، الشريك التجاري الرئيسي لتونس، في استعادة النمو تدريجيًا، مع آفاق إيجابية.

أما بالنسبة للتضخم، وعلى الرغم من استمرار مساره التنازلي شبه المعمم، فإن التيسير النقدي الذي شرعت فيه البنوك المركزية للاقتصادات الرئيسية مؤخرًا، من شأنه أن يتواصل بشكل تدريجي، على خلفية التقارب البطيء للتضخم نحو المستويات المستهدفة.

وعلى الصعيد الوطني، فإن النمو الاقتصادي كان إيجابيا، ولكنه فاترا (1٪ بحساب الانزلاق السنوي في الربع الثاني من عام 2024 مقابل 0،3٪ في الثلاثي السابق)، بما يعكس الأداء الضعيف للعديد من القطاعات الرئيسية، وخاصة البناء والمناجم والطاقة.

وبالنسبة للفترة المقبلة، تشير البيانات الاقتصادية المتاحة إلى استمرار الاتجاه التصاعدي للنمو الاقتصادي في الربع الثالث من عام 2024، والذي سيكون مدعومًا بانتعاش الطلب الخارجي والتعزيز التدريجي للطلب الداخلي.

وفيما يتعلق بالمبادلات مع الخارج، فقد تحسنت خلال الربع الثالث من عام 2024 بعد أن عرفت تراجعا طفيفا في الثلاثي السابق. وعلى مدى الأشهر الثمانية الأولى من عام 2024، ظل العجز التجاري (فوب-فوب) مستقراً وتدعمت فوائض ميزاني الخدمات والمداخيل، مما ساهم في تقلص العجز الجاري (2.130 مليون دينار مقابل 3.105 مليون دينار في موفى شهر أوت 2023). وقد يسّر هذا التطور تعزيز احتياطيات الصرف التي بلغت 25.654 مليون دينار (أي ما يعادل 116 يوماً من التوريد) بتاريخ 24 سبتمبر 2024. ومن جانبه، استمر سعر صرف الدينار في تأكيد تماسكه تجاه أهم العملات الأجنبية، مما أدى الى تقليص الضغوط الخارجية المسلطة على تكوين الأسعار.

ومن ناحية أخرى، تواصل التباطؤ التدريجي للأسعار عند الاستهلاك وبلغت نسبة التضخم 6،7٪ (بحساب الانزلاق السنوي) في شهر أوت 2024 مقابل 7٪ في الشهر السابق. ويعكس بقاء التضخم في مستويات عالية نسبيًا تأثير الارتفاع المطّرد لأسعار عدد من المنتجات الغذائية الطازجة، مثل اللحوم الحمراء والخضروات الطازجة، واستمرار التضخم الأساسي «دون اعتبار المواد الغذائية الطازجة والمواد ذات الأسعار المؤطرة». واستقر التضخم الأساسي، الذي يعكس الاتجاه الأساسي للأسعار، في مستوى 7٪ في شهر أوت 2024 مقابل 8،9٪ في أوت 2023.

وتشير التوقعات الأخيرة إلى استمرار الانفراج التدريجي للتضخم حيث من المتوقع أن يبلغ 7٪ في المعدل على كامل سنة 2024 مقابل 9،3٪ في سنة 2023. ومن المتوقع أن يبلغ التضخم الأساسي حوالي 7،2٪ في المعدل في سنة 2024 مقابل 9،1٪ في عام 2023. ولا يزال المسار المستقبلي للتضخم محاطًا بمخاطر تصاعدية متعددة على المدى القصير والمتوسط، تتعلق خاصة بكل من ارتفاع الأسعار الدولية للمواد الأساسية والطاقة والإجهاد المائي وضعف القدرات الإنتاجية ووضع المالية العمومية الذي لا يزال صعبًا.

ويعتقد المجلس أنه على الرغم من التماسك الذي أظهره الاقتصاد الوطني في السنوات الأخيرة، فإن إرساء الإصلاحات يعدّ أمرا أكثر من ضروري للارتقاء بإمكانات النمو واستعادة التوازنات الجملية على المدى المتوسط والطويل.

ونظراً للمخاطر المستمرة التي تحيط بمسار التضخم، يعتبر المجلس أنه من الضروري الاستمرار في دعم المسار التنازلي للتضخم. وقد قرر الإبقاء على نسبة الفائدة الرئيسية للبنك المركزي التونسي دون تغيير، في مستوى 8٪.

إشهار

محطّة «الحرّة» الأمريكية:

هكذا وصلت اسرائيل إلى نصر الله

- ✔ جنرال لبناني : أحد حرّاسه كان مخترقا من الموساد
- ✔ مخابرات دولية وعربية تواطأت مع المخابرات الاسرائيلية
- ✔ سرّ «الهاتفي الحقلي» الذي كان يستعمله الراحل

الحبيب القيزاني

لا حديث منذ أيام سوى عن عملية اغتيال حسن نصر الله الأمين العام لحزب الله اللبناني. وإذا كانت المخابرات الإسرائيلية تتكتّم كعادتها عن سرّ نجاحها في الوصول الى الرجل فإن الصحافة العربية والعالمية عجّت بروايات وتسريبات وتفاصيل عن الحدث.

محطة «الحرة» الامريكية المموّلة من طرف الدولة نشرت تحقيقا كاملا بعنوان : «جواسيس أم اختراق تكنولوجي : كيف قتلت إسرائيل نصر الله؟» محاولة فيه الإجابة عن أسئلة حول طريقة تمكن إسرائيل من اختراق الطوق الأمني والمخابرات اللبنانية ومخابرات حزب الله بما سمح لها بتنفيذ عدّة عمليات بدءا بقضية تفجيرات أجهزة «البيجر» والتولكي ولكي مرورا باغتيال معظم قادة حزب الله العسكريين وصولا الى أمينه العام حسن نصر الله بعدما عرفت بالتحديد عن مكان الاجتماع الذي عقده والذي قالت المحطة ان ضيفين حضراه أحدهما قائد فيلق القدس الذي قالت إنه قُتل في نفس الضربة.

موضوع التحقيق يحاول الإجابة عن السؤال : هل اعتمدت المخابرات الإسرائيلية على جواسيسها أم على الاختراق الالكتروني والتكنولوجي؟ واستطلعت المحطة آراء عدد من العسكريين اللبنانيين مثل العميد منير شحادة والعميد الركن اللبناني فادي داوود واللواء الركن المتقاعد العراقي ماجد القيسي والمستشار العسكري العراقي صفاء الأعسم والباحث المصري في شؤون الحركات الإسلامية أحمد سلطان.

وجاء في تحقيق المحطة : أضيف اسم إسماعيل هنية، رئيس المكتب السياسي لحركة حماس، وحسن نصر الله الأمين العام لحزب الله إلى قائمة طويلة من قيادات حزب الله وحماس والحرس الثوري الإيراني تمكنت إسرائيل وبضربات دقيقة من القضاء عليهم خلال أسابيع.

هذه العمليات التي وصفها مراقبون بالنوعية وغير المسبوقة أثارت تساؤلات كثيرة حول سرّ هذا النجاح السريع في الكشف عن أماكن تواجد هذه الشخصيات، والأسباب التي أدت الى الانهيار السريع في منظومات القيادة.

بعد تنفيذ الضربات الإسرائيلية، ألقى رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو كلمة قال خلالها إن «المهمة لم تنته بعد وأمامنا أيام مليئة بالتحدّي».

أما الناطق باسم الجيش الإسرائيلي، أفيخاي أدرعي فقد أشار الى أن «كل الوسائل مطروحة على الطاولة» والى أن «لدى إسرائيل الكثير من الوسائل والقدرات بعضها لم يتم تفعيله بعد» حسب تعبيره.

نتنياهو يعطي هاتفيا من نيويورك الامر باغتيال نصر الله

تفوّق عسكري مقابل قدرات تقليدية

يقول العميد منير شحادة المنسق السابق للحكومة اللبنانية لدى قوة الأمم المتحدة المؤقتة في لبنان «يونيفيل» لموقع «الحرّة»، إنه لا يمكن أن نتغافل عن قدرات وإمكانات إسرائيل التقنية والتكنولوجية في مجال التجسس.

فلإسرائيل في رأيه قدرات وتقنيات سرية عالية في هذا المجال وهي تتحكم في الأقمار الصناعية للحصول على ما تحتاج من معلومات.

ويشير شحادة الى وجود تعاون أمني واستخباري كبير بين إسرائيل ودول العالم، تعاون قال إن دوره برز عام 2005 عندما تدخلت جهات أجنبية في التحقيق في اغتيال رئيس الوزراء اللبناني الأسبق، رفيق الحريري.

ويضيف شحادة أنه كان لتلك الأطراف دور لاحق في جمع كميات كبيرة من المعلومات حول عمل أنظمة الاتصالات والجامعات والبنوك وحتى المستشفيات مؤكدة أن هذه المعلومات «وصلت بطريقة ما الى إسرائيل».

ويقول : مشاركة عناصر حزب الله في القتال بسوريا منذ عام 2011 كانت سببا آخر سهّل عملية رصد تحركات قادة الحزب. فجميع المشاركين في ذلك القتال أصبحوا مكشوفين بسبب استخدامهم أنظمة اتصال تقليدية قابلة للرصد مثل أجهزة الهواتف الذكية والراديو واللاسلكي.

ويتابع شحادة أن رصد تلك الأجهزة كان سهلا بالنسبة للاسرائيليين وأنهم حصلوا على معلومات مهمة حول عمل كل كوادر وقيادات حزب الله في تلك الفترة.

وأكد شحادة أن من لديه القدرة على الوصول لأجهزة «البيجر» واللاسلكي والتي نجم عن تفجيرها مقتل ما لا يقل عن 37 شخصا واصابة أكثر من 3000 آخرين، لديه القدرة أيضا على القيام بما هو أكبر.

اختراق داخلي ودعم خارجي

تفوق إسرائيل عسكريا وتكنولوجيا لم يكن السبب الوحيد الذي ساهم في نجاح عملياتها الأخيرة اذ يقول العميد منير شحادة ان حزب الله تعرض لاختراق أمني بين صفوفه وأن إسرائيل استفادت من «عملاء» يعيشون في مناطق تقيم فيها تلك القيادات للتجسس عليها والكشف عن أماكنها.

والاختراق البشري، كان حسب شحادة أداة مهمة انضافت الى التكنولوجيا المتطورة وساعدت إسرائيل على تحديد مواقع قيادات حزب الله واستهدافها بدقة عالية.

وحسب شحادة تطلّب الاعداد لعملية تصفية نصر الله سنوات، وحاولت إسرائيل اغتنام فرص عديدة لتنفيذ العملية منذ أمد بعيد. وأكد ان إسرائيل لم تكن لتنجح في ضربتها الأخيرة دون دعم أمني والحصول على معلومات استخباراتية من دول غربية مثل الولايات المتحدة وبريطانيا.

وذكّر موقع «الحرة» بأن واشنطن نفت مرارا علمها أو أي دور لها في قتل نصر الله لكن كمالا هاريس وبايدن أكدا أنهما غير متأسفين لاغتيال نصر الله.

رسائل ورقية

وتواصل محطة «الحرّة» في تحقيقها : «أثبتت العمليات الأخيرة أن ايران والأطراف الإقليمية التي تدعمها لا تمتلك التكنولوجيا التي يمكن الاعتماد عليها لحماية منظومات «القيادة والسيطرة» من أية تهديدات مستقبلية.

هذه القدرات – حسب العميد شحادة – لا تضاهي الإمكانات الإسرائيلية وأنظمة التجسس المتطورة التي تمتلكها ولكن هذا لا يعني أن الطرف الآخر غير قادر على مواجهة التهديدات المستقبلية.

ويقول شحادة إن لدى إسرائيل أيضا نقاط ضعف كثيرة بدليل أنها لم تستطع رغم مرور عام على الدخول في حرب مع المقاومة في غزة ورغم قدراتها العسكرية البارزة الكشف عن أماكن تواجد الرهائن رغم صغر مساحة المنطقة.

ويضيف أن قيادات حماس عرفت نقاط الضعف وحاربت إسرائيل من خلال اعتماد

أساليب قديمة لا تعتمد على التكنولوجيا المتطورة وإنما على استخدام أنظمة تقليدية مثل الرسائل الورقية أو الشفهية في التواصل بدلا من الهواتف الذكية أو الخلوية.

ووصف شحادة طرق الاتصال هذه بطرق «العصور القديمة» مستدلاّ على كلامه بأن الرسائل تصل مثلا الى يحيى السنوار وبأن الردّ عليها يأخذ 4 أيام معتبرا أنها وسيلة اتصال تذكّر مثلا بأيام استعمال الحمام الزاجل في التراسل».

التكنولوجيا والذكاء الاصطناعي لضرب «حماس»

تحت هذا العنوان الفرعي جاء في تحقيق محطة «الحرّة» : «التكنولوجيا المتطورة التي تمتلكها إسرائيل ساعدتها في تنفيذ عمليات دقيقة أدت الى مقتل هذا العدد الكبير من قيادات حماس وحزب الله والحرس الثوري الإيراني».

ويقول العميد الركن، فادي داوود من لبنان أن العمليات الاسرآئيلية كانت نوعية لأنها ركزت بالأساس على تصفية هذه القيادات وضرب منظومة القيادة والسيطرة لدى حزب الله.

وتحدث العميد المذكور عن توظيف الذكاء الاصطناعي في التجسس على المقاومة الفلسطينية والمقاومة اللبنانية. كما تحدث عن الطائرات المسيرة الاستخباراتية التي كانت تتجسس على مواقع المقاومة. وتطرّق للاختراق الداخلي مؤكدا الاعتماد أيضا على عناصر بشرية من الحلقة الضيقة حول نصر الله قال أن إسرائيل استطاعت أن تصل اليها وتوظفها.

كما تحدث عن «الهاتف الحقلي» مؤكدا أن نصر الله كان يستعمله منذ عام 2006. وأوضح أن هذا النوع من الهواتف محدود الارتباطات مع 7 أو 8 عناصر فقط وأن نصر الله كان يستخدمه للتواصل مع المجموعة المحيطة به فقط. وعن الإجراءات الأمنية التي كان يتخذها حسن نصر الله قال العميد الركن فادي داوود أنّ نصر الله لم يكن يشاهد التلفزة تحسّبا لأي تجسس عليه أو تفخيخ ينفجر في وجهه وأنه كان يتم مدّه بأقراص بها تسجيلات للبرامج التي يريد مشاهدتها.

وكشف العميد الركن أنه كان لدى نصر الله إحساس أمني كبير الى درجة أنه كان يتم نقل الضيوف الذين يزورنه على متن سيارات زجاجها داكن لا يسمح برؤية ما خارج السيارة. والنتيجة التي وصل اليها العميد الركن هي أن أحد حراس نصر الله الشخصيين كان مخترقا من طرف جهاز «الموساد» الإسرائيلي وتوظيفه.

وقال العميد الركن : «هذه العمليات كانت ترتكز على التفوّق التكنولوجي والتطوّر التقني وقد سخّرت إسرائيل كل ما تملك من قدرات في مجال الذكاء الاصطناعي وأجهزة التجسس والطائرات المسيرة المتطورة وغيره من الآلة العسكرية لتحقيق هدفها».

وأكد ان الاختراق البشري كان عنصرا أساسيا

دمار هائل خلفته الغارة على مقر قيادة حزب الله

في نجاح مهمة اغتيال نصر الله مشيرا الى أن العملية احتاجت الى الاختراق البشري الداخلي نتيجة السرية التي كانت تحيط بتنقلات نصر الله واتصالاته.

وشدد العميد الركن داوود على أنه من الصعب تنفيذ غارة جوية بمثل تلك الدقة دون وجود شخص على الأرض ساعد الإسرائيليين على تحديد مكان نصر الله.

واستطرد المتحدث قائلا : «ان الاختراق البشري ليس حديث العهد» مذكّرا بأنه سبق لحزب الله أن أجرى تحقيقات مع المئات من عناصره بعد غارات إسرائيلية استهدفت قياديين آخرين في لبنان وسوريا وقال : «يصعب تحديد طبيعة هذا الاختراق البشري دون توفر معلومات أمنية دقيقة» مستدركا بأن الاحتمالات المتوقعة تشير الى إمكانية مشاركة أحد عناصر القوات الخاصة المسؤولية عن حماية نصر الله أو الى أن الاختراق تم بمساعدة عناصر من الموساد اندسوا في صفوف الحزب.

وأضافت محطة «الحرة» في تحقيقها نقلا عن العميد الركن داوود : «العمليات الإسرائيلية كشفت أيضا عن قدرات حزب الله المحدودة والتقليدية» واضافته : «هذا الضعف ستكون له تبعات حتى على مستقبل الحرس الثوري الإيراني والتهديدات المتوقعة التي تحيط به بدليل أنه اتخذ إجراءات أمنية إضافية كان أبرزها نقل مكان إقامة المرشد الأعلى علي خامئني الى مكان سرّي لحمايته».

أما اللواء الركن العراقي المتقاعد ماجد القيسي فقد قال إن العمليات الإسرائيلية تمت على مستويات متعددة داخلية وخارجية إضافة الى التقنيات المتطورة التي تملكها إسرائيل من أقمار تجسس وقدرات عسكرية.

وأضاف أن المعركة كانت استخبارية بدرجة أولى وان إسرائيل ركزت على استهداف مراكز الثقل لحزب الله جوا في لبنان وانها لم تلجأ الى مواجهات برية مثلما حصل عام 2006.

واتفق ماجد القيسي مع العميد الركن داوود حول دور العنصر البشري وقال : «يشير مسار العمليات والنتائج المحققة الى صعوبة إنجازها دون تواجد اختراق أمني داخلي في صفوف حزب الله».

ويرى ماجد القيسي أنه ستكون لاغتيال نصر الله تأثيرات عدة على عمل حزب الله في المستقبل وعلى الداخل اللبناني وحتى على «المشروع الإيراني» في المنطقة.

واستدرك قائلا إن هذه العملية لا تعني نهاية حزب الله معتبرا أن لدى الحزب قيادات عسكرية وميدانية مهمة وقادرة على مواصلة مسيرته وتدبير العمليات ضد إسرائيل في المستقبل.

وأضاف : «الاغتيال لا يؤثر على هذه الحركات والتنظيمات ولا يقضي عليها وإنما يمكن أن يضعف دورها وأداءها مؤقتا» مذكرا بأن نقطة قوة حزب الله في الاستمرار نابعة من القاعدة والحاضنة الشيعية الواسعة وذات الولاء الكبير له مذكرا بأنه سبق لفيلق القدس الإيراني ولحزب الله وحماس أن تعرضت لضربات موجعة وبأنها «واصلت مع ذلك نشاطها وعملياتها وتمكنت لاحقا من اختيار قيادات جديدة شكلت تهديدا مستمرا لإسرائيل».

المستشار العسكري العراقي صفاء الأعسم أكد انه لم يكن بإمكان إسرائيل الوصول الى نصر الله دون دعم خارجي الى جانب الاختراق السيبراني لكل قيادات حزب الله.

وقال الأعسم : «مقتل نصر الله ناتج عن اختراق أمني داخلي بامتياز حسب مراقبين» مضيفا : «ان حجم العمليات ضد حزب الله وحماس كشف عن حرب استخباراتية وتجسسية استعدت لها إسرائيل منذ سنوات وجاءت بدعم جهات خارجية.

وتابع : «لم يكن حزب الله من جهته مستعدا بجدية للتهديدات المتوقعة وقلّل من مخاوف إمكانية وصول يد إسرائيل الى قيادات الحزب واستهدافها على كل المستويات».

وحسب الأعسم فإن «القدرات التي يمتلكها الحرس الثوري الإيراني وحزب الله وحماس تقليدية وعاجزة عن مواجهة التهديدات الإسرائيلية وعن الوقوف في وجه العمليات المستقبلية وتوفير الحماية لقياداتها» مشيرا الى أن إسرائيل «نجحت من خلال هذا الاختراق السيبراني في الكشف عن كل أسرار عمل تلك الجهات وتحديد أماكن تواجد قياداتها واستهدافها في أي وقت تشاء».

زلزال

الباحث المصري أحمد سلطان توقف عند مغزى تفجيرات أجهزة «البيجر» وقال ان «التراخي والإهمال الأمني للجهاز الاستخباري التابع لحزب الله طوال الفترة الماضية كانا وراء هذا الانهيار السريع في منظومة القيادة.

ولم يستبعد سلطان ضلوع اشخاص وحتى قيادات مقربة من نصر الله في نقل معلومات سرية عن مكان تواجده الى إسرائيل.

واعتبر ان الاختراق الأمني «ساهم أيضا في نشر شبكة كاملة من عملاء الموساد داخل جهاز حزب الله الأمني والعسكري».

وقال : «صحيح أن القضاء على قيادات بارزة لا يعني نهاية أية حركة مسلحة أو تنظيم أيديولوجي لكن مقتل نصر الله هو زلزال حقيقي هزّ كيان الحزب والمحور الإيراني المعروف بمحور المقاومة».

وختم سلطان بالقول : «رغم ذلك سيبقى حزب الله لكنه الآن في مرحلة ارتباك كبير وقد تتراجع فاعليته لكنه لن يختفي وسيزداد شراسة لأنه سيكون محملا بالثأر والرغبة في الانتقام وسيلعب بلا ضوابط».

هذه رواية محطة «الحرة». وستظل حقيقة تفاصيل الجريمة والوسائل التي تم اعتمادها لتنفيذها مغيّبة حتى يكشف الاسرائيليون عنها.

وتجدر الاشارة الى ان اتهام ايراني بالتورط في اغتيال نصر الله ربما يندرج في اطار محاولة دقّ اسفين بين ايران وحلفائها في المنطقة وتأليب جانب كبير من الرأي العام العربي والاسلامي عليها في اطار سياسة «فرّق تسد».

العميد منير شحادة

العميد الركن فادي داوود

اللواء الركن المتقاعد ماجد القيسي

المستشار العسكري العراقي صفاء الأعسم

إرهاب

ليون بانيتا كاتب الدولة الأمريكي للدفاع سابقا والمدير الأسبق لوكالة المخابرات الامريكية CIA اعتبر في حوار أجرته معه قناة CBS News أن تفجير إسرائيل أجهزة «البيجر» في لبنان «أحد أشكال الإرهاب».

ضوء أحمر

مجلة Manager كشفت أن شركة فولسفاغن الألمانية تمرّ بمنعرج وصفته بالحاسم في تاريخها مشيرة الى أنه «اذا لم تتمكن إدارة الشركة من الخروج من الوضع المالي الصعب الذي تمرّ به فإنه ستكون لذلك انعكاسات مأساوية على العاملين بها خصوصا في ظل التحدّي الذي يطرحه الانتقال الطاقي بالتوجه نحو السيارات الكهربائية».

المجلة لم تستبعد لجوء الشركة الى الغاء مواطن شغل بداخلها بشكل كثيف قد يبلغ 30 ألف وظيفة من جملة 300 ألف موظف وذلك للتخفيض في كلفة الإنتاج.

المجلة أضافت أن الغاء مواطن الشغل قد يطال فرق البحث والتطوير التي يبلغ عدد العاملين بها 13 ألف موظف مشيرة الى أنه قد يتم الاستغناء عمّا بين 4000 و6000 وظيفة.

من جهة أخرى أفادت المجلة بأن الضوء الأحمر اشتعل أيضا داخل شركة Deutsche Telekon مؤكدة أنها تنوي التخلص مما لا يقل عن 15 ألف موظف بها مؤكدة أن شركة Siemens قررت بدورها الاستغناء عن 7000 موظف وأن شركة OPEL تنوي الغاء 4000 وظيفة.

Manager ذكرت أيضا أن شركة فولكسفاغن قد تفكر في غلق مصانعها بألمانيا ملاحظة أن ذلك ان تم سيمثل سابقة في تاريخها منذ تأسيسها قبل 87 عاما.

باي... باي !

موقع «الشبكة العالمية» نقل عن احصائيات صادرة عن المكتب المركزي للإحصاء بإسرائيل أن عدد الإسرائيليين الذين غادروا البلاد ارتفع مقارنة بعام 2022 بنسبة 46،4 ٪ ليبلغ 55300.

وتشير تقديرات المكتب المذكور اثر ضبط اعداد المغادرين على امتداد السبعة أشهر الأولى من هذا العام الى ارتفاع اعدادهم بـ 58،9 ٪ مقارنة بعام 2023 (25500 مغادر عام 2023 مقابل 40600 عام 2024).

... في قبرص

إذاعة Turner Radio Show ذكرت أن الولايات المتحدة الأمريكية نشرت في اطار دعمها العسكري لإسرائيل الفرقة 101 المحمولة جوّا في منطقة الشرق الأوسط.

الإذاعة أوضحت أن ما لا يقل عن 4 طائرات نقل عسكري من نوع Cargo C-17 حطت بجزيرة قبرص وبإحدى قواعد الجيش الإسرائيلي بصحراء النقب.

وحسب الإذاعة تنوي أمريكا ارسال المزيد من القوات مذكرة بأن بريطانيا بدورها أرسلت الى جزيرة قبرص فرقة تتكون من مظليين وذلك تحسبا لأي طارئ في صورة قررت تل أبيب شن عملية توغل برّي في جنوب لبنان.

غرق

صحيفة «وول ستريت جورنال» نقلت في عددها الصادر يوم 26 سبتمبر المنقضي عن مسؤولين أمريكان أن أحدث غواصات الصين العاملة بالطاقة النووية تعرّضت للغرق خلال عملية ابحارها التجريبي.

المسؤولون أكدوا للصحيفة أن الأقمار الاصطناعية الأمريكية رصدت رافعات عملاقة صينية بصدد انتشال الغواصة من البحر وتأكيدهم أن السلطات الصينية تكتمت على الحادث. وأشارت إلى أن الصين تمتلك الى حدّ الآن 6 غواصات من نوع الغواصة التي غرقت وإلى أن ذلك يندرج في إطار تحديث أسطول غواصاتها.

وأضاف المسؤولون أن الغواصات الست قادرة على حمل صواريخ باليستية مضادة للسفن الحربية ولحاملات الطائرات الى جانب عدد من الطوربيدات.

أما عن مدى الصواريخ فقد ذكر المسؤولون الأمريكيون أنه يبلغ 2500 كلم ملاحظين أن غرقها قبل بدء عملية ابحارها في المحيط الهادي يعني وجود مشكلة في بناء هيكلها وليست على علاقة بتشغيلها.

تعويضات

خلال مداولات الجمعية العامة للأمم المتحدة أعلن ادغار لوبلان الابن رئيس المجلس الرئاسي الانتقالي بهايتي أن بلاده تطالب فرنسا بدفع تعويضات تقدر بالملايين عن الفديات التي أجبرت على دفعها للجانب الفرنسي خلال القرن 19 مقابل حصولها على الاستقلال.

وقال ادغار لوبلان : «لطالما منعت تلك الفديات بلادنا الفتية من تحقيق نموّها لكن الوقت حان لاستعادة تلك الأموال».

جنوح

وكالة «أسوشياتد براس» ذكرت أن السفينة الوحيدة لتزويد قطع البحرية الأمريكية الحربية العاملة بمنطقة الشرق الأوسط جنحت يوم 23 سبتمبر الجاري بعد تعرضها الى أضرار اثر القيام بمهمة تزويد عدد من السفن الحربية.

وحسب الوكالة جنحت السفينة USNS Big Horn بعدما قامت بتزويد حاملة الطائرات «يو. اس. اس. ابراهام لينكولن» والسفن المرافقة لها التي أرسلتها الولايات المتحدة الى المنطقة لدعم إسرائيل.

من جهتها نقلت قناة CBS News عن مسؤولين أمريكيين تأكيدهم أن السفينة جنحت في سواحل سلطنة عمان.

وأضاف المسؤولون ان الاضرار التي تعرضت لها السفينة كانت بدرجة يمكن أن تتسبب في غرقها وأنه تم قطرها الى الميناء لتقدير الاضرار التي تعرضت لها.

وسفينة Big Horn هي من نوع سفن تدعى «ناقلة نفط» تحمل على متنها محروقات ومواد تزويد أخرى تعتبر حيوية بالنسبة للسفن الحربية وللطائرات المرافقة للأساطيل البحرية.

لكأنه سقوط الدهر

نبيه البرجي

لن ننتحب، ولن نولول، ولن نرتدي ثياب الحداد (ذاك الحداد الأبدي) . هذا وقت ينبغي أن نكون فيه بصلابة الصخور، وبقوة الأعاصير، لأنه كان هكذا حين يقف وحين يتكلم وحين يقاتل . الآتي من حياة هي حياتنا، الذاهب الى موت هو موتنا ...

ولنعترف بأن هذه الأزمنة لم تكن، ولن تكون أزمنتنا، لا هي أزمنة القلب، ولا هي أزمنة الله . هي أزمنة القتلة، والطغاة . من يظنون أنفسهم أنصاف الآلهة، وهم أنصاف البشر . ولقد أظهرت الأيام، وذاك اليوم الذي مات فينا كل شيء، اننا نقف وحدنا في القضية، وفي الصراع، وفي البحث عن مكان يليق بالكائنات البشرية، بعدما مللنا أن نكون القهرمانات (وحتى قهرمانات السماء) لهذا البلاط أو لذاك، لهذا الحرملك أو لذاك .

يا لمصيبتنا ! ليس صحيحاً أن المصائب تصنع الرجال . المصائب، وبيأسنا الذي لا يأس قبله، ولا يأس بعده، لا تصنع سوى الضحايا، وسوى الجثث، دون أن ندري ما الفارق بين قهقهات الحاخامات وقهقهات من رأوا فينا أذرعهم في تحقيق أغراضهم الجيوسياسية، وأغراضهم الجيوستراتيجية . ما حجة هؤلاء لكي يتركونا بمفردنا نواجه البربرية هنا، والبربرية هناك، والبربرية هنالك، ونحن في البلد الذي لا مكان فيه الا للذئاب، والا لأكلة عظام البشر،والا لمن يلهثون وراء الفتات، سواء كان الفتات القبلي أم الفتات الأمبراطوري .

لقد آن الأوان لكي ندرك لماذا قتل قابيل هابيل، على مرأى من الله، لكي ندرك لماذا وجدنا على هذه الأرض، على أنها أرض الآلهة، وأرض الجبابرة، الذين تتقيأ أفواههم الدم، وتتقيأ عيونهم الدم، وتتقيأ أذانهم الدم . هكذا ظننا اننا قهرنا القهر،لنكتشف في نهاية المطاف، وقبل نهاية المطاف، أن طريقنا هو طريق الجلجلة، ولا قيامة، ولا نريد القيامة.

اعتدنا أن نغتسل بدمائنا مثلما نغتسل بدموعنا . ما النتيجة ؟ انها رقصتنا مع الهباء، ورقصتنا مع اللامعقول، ورقصتنا مع العدم . ولنعد الى بيوتنا القديمة، والى قبورنا القديمة، لأن الشمس لم تشرق من أجلنا، ولأن قتلانا ليسوا، كما قلنا، ببهاء القمر، بل هم يذهبون، ويذهبون، ويذهبون . ولقد ذهبوا ..

من هناك، يقولون لنا اياكم أن تكونوا لغيركم، كونوا للبنان فقط ، ولتراب لبنان، ولأهل لبنان، لأن هناك من يبيعكم، ويبيع جثثكم . ولقد عشتم من أجلهم كل تلك المرارات، وكل تلك الآلام، لتوضع جثثكم على طاولة المفاوضات . هذا أيها الأحياء اذا كنتم لا تزالون على قيد الحياة منطق الامبراطوريات، وبقايا الأمبراطوريات، وهذا منطق القبائل، وبقايا القبائل .

ماذا تعني القضية اذا كان رجال القضية يرحلون هكذا، واذا كان ورثة القضية يدفنونها حيناً تحت الورود، والثلوج الاسكندنافية، وحينا على صوت المآذن في القاهرة (ليس الظاهر بيبرس هناك بل فيفي عبده)، أو داخل العباءات الزاهية في الدوحة ؟

أمريكا قالت ان اسرائيل لم تبلغها، مسبقاً، بالغارة . هل هو غباء كاليغولا أم غباء الشيطان، كما لو أن تلك القنابل الهائلة، القنابل المقابر، لم تقدم على طبق من الذهب الى يهوه الذي نعود ونذكّر بقول الميثولوجيا العبرية انه كان، من كهفه، يرشق السابلة بالحجارة التي ما لبثت أن تحولت الى قنابل نووية يفترض ألا تكون الا بأيدي من احترفوا صناعة النار ؟ أكانوا ورثة هولاكو أم ورثة يهوذا ؟

أجل، يا لمصابنا حين تكون أوراق الخريف، وهي أوراق اليأس، كفننا . كم شهق ذاك التراب، وكم بكى (وكنا نظن أنه يزهو وأنه يزغرد) حين يرى من هم ضيوفه في هذه الأيام، ودون أن نسال أين هم الأنبياء، وأين هم الملائكة الذين طالما قيل لنا انهم خلقوا من أجلنا (ومتى كانوا لأجلنا ؟) . أيها السادة الأنبياء، وأيها السادة الملائكة، لا حاجة لنا بكم . دعونا نتدبر أمرنا بأنفسنا، لأننا نعرف الطريق الى قبورنا، ونحن نسلكها في كل يوم، وفي كل لحظة .

الذي كان الرجل فوق الرجال، والذي كان الوردة والبندقية، الجبل والسنبلة . الذي كانت عباءته عباءة من يصنعون الأسطورة، ويرحلون مثلما ترحل الأسطورة . لن نقول «ستبقى بيننا (أين بيننا ؟)، بتلك الضحكة التي كانت لغة القلب ما تبقى من القلب وحين تطل تطل الحياة .

الآن لا ضحكة، ولا اطلالة، يا من كنت تغمرني وتقول «حين أقرأ مقالاتك أشعر بالعنفوان» . بعدك أي لهفة للحياة بل أي حياة ؟ أي لهفة للكلمة، بل اي كلمة ؟ يا من كان سقوطه لكأنه .. سقوط الدهر !!

الشارع الثقافي

العدد 425 - من الثلاثاء 1 إلى الاثنين 7 أكتوبر 2024 - الموقع الالكتروني www.acharaa.com- البريد الالكتروني : maghrebstreet@gmail.com

الكاتب مالك الشويّخ لـ «الشارع المغاربي» :

عالم الطفولة عالم براءة ومرح وثروة تونس أطفالها وشبابها

اتحاد الكتاب... طاحونة الشيء المعتاد

بقلم : عواطف البلدي

تراث

ابن عبّاس الصّحابي المفسّر الزّاهد في مرآة الاستشراق

بقلم : صلاح بوزيّان

وقفة

العنف المقنّع والإنسانية المقهورة

بقلم : عُمَر بن بوجليدة

سينما

«كاميكاز»: رحلة الخلاص... أو غربة الكائن في حضن الوطن

بقلم : صالح سويسي

وقفة

العنف المقنّع والإنسانية المقهورة

بقلم : عُمَر بن بوجليدة، جامعة تونس

إشكال: هل ثمة خطابات أخرى حول الكرامة الإنسانية داخل هذا العالم، وإلى أي مدى يمكنها أن تنافس الخطاب الغربي المهيمن حول حقوق الإنسان؟

«بوافنتورا دي سوسا سانتوس»

نلاحظ أن المجتمعات المأزومة، والتي تعيش الرتابة والملل والضياع والحرمان والاغتراب، إنما هي الأكثر مكوثا في ماضيها وانهماما به وإقبالا عليه، وإذ نحن نحاول التمرد على هذا الواقع، والسائد، فلنستعيد إنسانيتنا، ويتقوض البناء النظري الذي يقوم عليه التفاوت الاجتماعي وأسسه الأخلاقية. فوحده هذا الإقلاق هو الذي يربك تشوّفنا لعوالم ممكنة ما عاد لها أن تعود ويزحزح علاقتنا بـ «التراث» ويرشدنا إلى كيفية التعاطي مع عصرنا. وليس يخفى ما لهذا الضرب من التقدير من أهمية إذ يجدر بنا أن نشير إلى أنه كان بوّابة أنعشت أسئلة ستطرح ضرورة التوجه إلى عيون النصوص (أفلاطون، اسبينوزا، ريكور، أغامبن ...) وتكشف عن مطويّاتها وتفتح آفاقا للتحليل جديدة.

وهم الأصالة الفوق تاريخيّة:

ذلك هو المسار الذي يجب تتبع أطواره لنفهم منطلقات وإشارات الانتصارات المتنامية للعقل والمعقولية بوصفهما الحاصل الفلسفي للمشروع الحداثي في وضوحه ومبدئيته وعمقه. هاهنا تتبدى وجاهة المسلمة التي أصبحت تؤكد التنوير والتأويل والعقلانية أساسا للحقيقة والمعرفة ومن ثمة ترتبط فكرة الحداثة بفكرة العقلانية، وإن شئت قل، إنها تدشن لحظة حاسمة لحظة انفصال العقل العلمي عن الوجدان الغيبي.

واشتغالا بالغرض الذي أخذنا في صوغه نوضح أن المهمة المناطة بنا اليوم، ليس بواجب، أن تكون تمجيدا و حنينية أو كما لعلّنا نقول اليوم سقوطا في سرد احتفالي بالذات على اعتبار أننا مجموعة، بشريّة تنتمي إلى تقاليد نصيّة قديمة، إنّما هي الشروع في تدمير ما نميل ميلا غير يسير في معاودة تركيبه باستمرار على فراغ تاريخيّ: إنه وهم الأصالة الفوق تاريخيّة، وبالتالي حقيق بنا الكفّ عن السجال الهووي في النقاش حول أنفسنا بأن ننتج سردية حقيقية للاستنهاض. إنّ هذا التلفّت اللّطيف صوب نصّ «الإنسانية الأوربيّة» المحرّر والمدهش إنّما يستشرف مآلات إنسانية آسرة. وها هنا سنلاحظ كيف أن مشروع التنوير مشروع مزدوج ومتناقض بل يؤدي إلى مآزق ومطبات، تؤكد انسدادا تاريخيا، فهو مناهض على المستوى النظري للظلامية والخرافة مدافع عن حرية الفكر، لكنه رافض على المستوى العملي للغيرية من خلال السلطان السياسي. ومن المهم أن نشير إلى أن «الغرب» وظف فكرة حقوق الإنسان كذريعة لانتهاك حقوق أخرى أكثر أهمية واستعجاليه، بعد أن حصر هذه الحقوق في بعض أبعادها الفردية وبانتقائية مشهودة، ولقد حوّل المجتمع إلى مجرد سوق مستفيدا بذلك من تشريعات سلطوية تحاول دائما تجريم الاحتجاج لدرجة جعلت وضع المواطنين في العالم شبيها بوضع الرعايا.

ولقد اهتزت، في كل حين، ثقافة المجتمعات «المتطورة» بشكل حادّ، فحققت انزياحا رهيفا، تجاوز بدقّة لا تعرف الحياد الرحيم، كلّ الاستقطابات الايديولوجية الدينية والعرقية وأشرع بوابة التدرب المضني على أن نكون أحرارا، فـ «المواطن» يضع في كل مرّة أسسا جديدة للديمقراطية والعيش المشترك. وما كان ذلك ليكون لولا المراجعة وإعادة النظر التي لا تلين في مستويات العلاقة بين المتعالي الإلهي والتأويل الاجتماعي، بين الشرعية الدينية والشرعيّة العلمانية. وبالتالي المقابلة بين نظام الاستبداد والطغيان والنظام الديمقراطي، إذ الشرعية في النظام الحديث لم تعد تشتق بإطلاق من الدين (فكيف نتعاطى مع مشكلة الإيمان التي تعترضنا يوميا ؟) بل من التزام على درجة عالية من الوفاء بالديمقراطية والتنمية (التنمية التي تشعرنا بالمساواة وتؤسس للسعادة) وبناء المواطنة الحديثة أي من قيم زمنية سياسية. علينا الإقرار بأن ذلك النزاع وهذا التدمير لم يحصل بموازاته بناء سياسيّ للحكم والمشاركة والاعتراف بالآخر، فقد حصلت انسدادات واختلالات في قنوات السلطة وفراغ في المجتمع المدني، وذاك الفراغ عينه، أساس العنف المدمر.

الاستعمال «المشروع» للقهر:

ولقد بات ممكنا القول، إنّ الإلزامات القانونيّة إنما هي ضرب من ضروب العنف أو ما كان قد سماه «ريكور» ذات مرّة الاستعمال المشروع للقهر، وهو ما يتجلّى واضحا فيما تضطلع به الدولة وظيفة عقابيّة في ظلّ مؤسسات تمنح قوّة قهريّة للأخلاق العامّة تحت حراسة دولة القانون. ولا مناص لنا هنا من الإشارة إلى أنّ العلاقة بين القاضي من جهة ما هو ممثل للقانون ومُؤوّله والفرد الذي نستجيز لأنفسنا افتراض أنه «آثم»، إنما هي علاقة مفارقة. وهكذا وفي ذات الآن الذي يظهر القاضي فيه إنسانا حاملا لكل الدلالات الأخلاقيّة، تستلزم منه المهمة المناطة بعهدته أن يعامل شريكه في الإنسانيّة كآخر، لا تربطه به صلة. ومن ثمّة تنفصم عرى الرّوابط الأخلاقيّة. ولقد نعلم أنّ هذه الصعوبة مهما استعصت فإنها إذا ارتدّت أمارات تدفع إلى اشتراط دقة اشدّ وأوفى لمعنى الحقّ، وكانت الاستعاضة عنه بما ليس هو: العنف.

استقام لدينا حينئذ أنّ الحقDroit الذي يتعارض مع القانون إنما هو الحق الذي لكل واحد فينا لحظة غياب القانون. بيد أنه ما إن يعلن عن شبكة مفهوميّة ينهض نسيجها على السلطةpouvoir والشرعيّةlégitimité والقانون، حتى يكون الحق مقاما. إلاّ أننا مطالبون بأن ننتبه إلى أنه لو يكون لنا الحق في أن نفعل ما نشاء ينقلب أمرنا ضرورة إلى حرب «الجميع ضد الجميع»، إنه التنافس والتوجس والفخر. وقصد الفصل بين الحق بصفته حرية لا حدود لها وبين القانون الباعث على التحريم، قد حلّت أوامر يجوز القول عنها إنها من جنس شبه أخلاقي ما دامت تحاكي قواعد الأخلاقيّة الإلزاميّة. ولو تعقبنا وجودنا الاجتماعي لتبيّن لنا أنه لا يخلو من القوانين الملزمة.

ولأن الانتقال الديمقراطي لا يبنى على فراغ ثقافي تنعدم في مستواه الحداثة الفكرية، من جهة ما هي أسئلة جذرية تطرح حول الواقع والتاريخ والرؤية الدينية للعالم، يفترض الأمر بناء أوسع علاقة ممكنة بالعقل (ليس المقصود العقل المجرد)، لتناط بعهدتها إرادة التحرر والقطع مع «الإقطاع» و«العروشية» و«الطائفية» و«الجهوية» وإقرار حقوق الإنسان والمواطن.

هكذا توضح بما لا يدع مجالا للشكّ أن الهوية، مثلا، إنما هي نتاج لحركات تثاقف إنساني، ولحظتنا الراهنة هي لحظة الخروج إلى «الحداثة المغايرة» التي تستلزم إمّا ما بعد تنوير وإما استئناف تنوير مستحدث، من مقام النقد الغربيّ الداخلي للحداثة وتخليص «الغرب» من مركزيته، فـ«الغرب» الذي طالما وثقنا به وتمسّكنا بحبله إنما بات غربا يتمزق. إذ ازدادت الحرية الرأسمالية المشطّة والمتوحشة قوّة بسبب فقدان القاعدة الانتخابية ثقتها في المؤسسات الديمقراطية، وهو ما يؤشّر إلى غياب المبادئ والأفكار والأخلاق وبالتالي السياسة: إنه ما يفسّر حالة الفوضى التي يتجه إليها العالم، نتيجة سياسات استبدادية، لم تكن قادرة على منح الشعوب فرص التعبير والتطوّر الديمقراطي والاندماج التدريجي في فضاءات العولمة – التواصل الوهمي عن طريق الدعاية والإشهار، وثورة تقنيات الاتصال التي أصبحت عنفا مقنّعا-. فالمراقبة المستهدفة ظهرت مع الإعلانات، إذ كل فاعل يبحث عن التأثير في سلوكاتنا، يستعين بها، ما كشف عن قدرة استعمال «الجهاز» – الفايس بوك مثلا – على تغيير رأي المواطنين: إنه تحول غيَّر مجرى النظام من المعرفة إلى السلطة، فيمكن، من الآن، ضبط السلوك وتغيير المواقف.

ذلك أن النقد والتسامي والمجاوزة، إنما يقتضيان عدة معرفية عميقة ومنهجية صارمة ورهافة إنصات للنصوص يحض على القراءة و التفكير والنظر والتأمل والتبصر والتدبّر، والحوار وضرورة نقد الآراء السائدة والأحكام المسبقة. فالوجود نسيج نصيّ عظيم، إلا أنّ ما يلفت الانتباه، هو هذا التعاطي القائم على تناقض رهيب.

لقد ظهر أن طغيان سلطان السلطة والروح القبليّة والعشائريّة والطائفيّة والتعصب والدغمائية والآداب السلطانيّة، لا تواجه بغير الانفتاح والروح النقدي ومشروع الديمقراطيّة من جهة ما هي نظام مؤسسيّ لإدارة تعدديّة المجتمع المدنيّ، و بناء الديمقراطيّة يقترن بعملية تحرير العقل من الاستعداد للقبول بالاستبداد، وهكذا فنقد الأسس التي عليها ينهض النظام الاستبدادي يرتبط ضرورة بعملية بناء العقل.

فمن أوجه المفارقة، أنّ التطورات التكنولوجيّة، والتي خلخلت في الوقت عينه طرائق الإنتاج والاستهلاك، تتزامن مع ظهور تصورات انثربولوجيّة وثقافيّة تعزز ميلاد إنسانيّة جديدة وترتبط بها. وهكذا بات تدبّر مسألة «الابتكارات التكنولوجية»، ومدى فعل التكنولوجيات الرقميّة والثقل الحاسم للتقنية في المجتمعات المعاصرة اقتضاء ملحّا.

وتلك مهمّة لا تستقيم إلاّ من مقام استئناف تأمّل اختلال التوازن بين«الإيتيقي» و«التقني»، الذي رشح وهبط ما فيه غدرا (زمن العولمة والكورونا).

وفي ظل هذا القول ألاستنفاري، والمخزي تماما، اتّضح أن «رجل العلم» أصبح وسيلة بيد أغبياء، – عن وعي أو عن غير وعي – ووسيلة بيد لوبيات والتواءات «السياسي»، ومؤسسات تبث إحساسا عميقا بالعزلة. وإذا تقرر هذا، فقد انحلّ الإشكال، إذ علينا ابتداع أخلاق جديدة وتحالف بين العلم» و«الشعر / الفن»، يرفع الغواشي ويضمن احترام إنسانية الإنسان المنهوكة والمقهورة.

اتحاد الكتاب... طاحونة الشيء المعتاد

بقلم : عواطف البلدي

فعلا مثلما كتب الشاعر المنصف المزغني في تدوينة له على صفحته الخاصة بفايسبوك تحت عنوان «متى اتّحد الكتّاب»، في المطلق وكمبدإ فإن توحيد الكتّاب أو الشعراء أو الروائيين أو الفنانين عموما في اتحاد أو منظمة تجمعهم هو «صناعة سوفياتية». فمثلما أشار المزغني في تعليقه المطول فإنّ عظماء الكتّاب والادباء الألمعيين شرقا وغربا، شمالا وجنوبا وفي كل الازمان لم يكونوا حريصين على الانخراط في منظمة تجمعهم إلّا في حالات نادرة لعبت خلالها بعض منظمات أو اتحادات الكتّاب دورا اجتماعيا أو وطنيا وساهمت في حركة تحرّر واستقلال أو في بناء دولة أو في نحت وتشييد الديمقراطية والدفاع بشراسة عن الحرية...

لم يجانب المزغني الحقيقة رغم سخرية الأسلوب، والسياق يتطلب هذه السخرية السوداء... وسنسمح لأنفسنا بالحسم هنا، لم نعرف لاتحاد الكتاب مسافة رسمها لنفسه عن السلطة بل بالعكس هي من أنشأته واحتضنته واطمأنّ في حضنها لعقود متتالية. كان ملتحما أو يكاد مع نظام بورقيبة ونظام بن علي، حتى أنّ أمناءه العامين كانوا يُنتقون من القصر مباشرة حسب معيار الولاء السياسي وخدمة النظام...

لتسقط الأقنعة، ونحن في زمن سقوط الأقنعة، كان اتحاد الكتاب ونحن نتحدث هنا عن الهيكل المركزي وعن الذين كانوا متنفذين فيه الا في حالات نادرة جدا متذيّلا للسلطان صامتا خانعا خلال محطات المعارك الكبرى المجتمعية، الصمت، الصمت، الصمت، والشارع ينتفض.

لا بيان لا موقف لا فعل لا تفاعل ولا صوت يُسمع أو حتى مجرد همسات أو تلميحات... نحن هنا نتحدث عن جهاز أدار هذا الهيكل ونبرّئ كتّاب تونس الذين أصابهم اليأس والاحباط فتفرّقوا عنه وانفضّوا من حوله بل وصل الامر الى التمرد عليه ومحاولة تأسيس نقابة كتّاب حينا أو جمعية أو رابطة حينا آخر باءت جلها بالفشل للأسف الشديد رغم جرأة المحاولة وحسن النوايا في زمن يعسُر خلاله التمرد الا على الشجعان والشرفاء.

هذا قبل حدث 14 جانفي، أما ما تلا ذلك فإن القلب ليحزن عندما ترى حراكا شعبيا واجتماعيا وجمعياتيا وحزبيا عاشته تونس رغم أن له ما له وعليه ما عليه فإننا لم نسمع لاتحاد الكتّاب التونسيين صوتا عاليا. لم نره فاعلا خلال عشرية كاملة رغم ادعائه بأنه يمثل كتّاب تونس. كان غائبا أو يكاد في عشرية تكلّم الجميع بلا استثناء: محامون وأطباء ونساء وفلاحون ومهمّشون ورياضيون ومطربون الخ.. الا اتحاد الكتّاب.

لنقل الحقيقة عارية دون تجميل ودون مساحيق: لا يمثّل اتحاد كتّاب تونس الا من حضر الندوة الصحفية التي عقدها بمقرّه الأسبوع المنقضي وعددهم لم يتجاوز العشرة. وهنا استثني بعض فروعه الجهوية الذين ينشطون بصدق دون قدرة على التأثير أو تغيير موازين القوى في المركز بشارع باريس...

استبشرنا حقيقة بالرئيس الحالي وقلنا حينها إن الدكتور العادل خضر وهو قامة علمية بلا شك سيمسّ الاصلاح والتغيير بجذرية اتحاد الكتاب فانتظرنا ان تفتح الابواب لكل كتّاب تونس وتخطوا صفحات جديدة لهذه المنظمة وسوف لن يقتصر الاتحاد على كتّاب القصة القصيرة والشعراء والروائيين فحسب ولكن فوجئنا ان الابواب زادت انغلاقا بعد أن صرّح رئيس الاتحاد أن المنظمة ستركّز على كتّاب القصة القصيرة وتبريره في ذلك أن للشعراء بيتهم كما أن للروائيين بيتهم والمسكوت عن الكلام المباح هنا أن الاتحاد سيصبح اتحاد كتّاب القصة القصيرة... يا للمسخرة.

مرة أخرى يضيّع آل اتحاد الكتاب التونسيين الموعد مع الاصلاح وتغيير البوصلة. من ناحية أخرى لا يزال الاتحاد على عهده منذ نشأته أي الحذر من الادلاء بالرأي والموقف في الشأن العام والتعامل مع شؤون الكتّاب كنقابة مطلبية تكتفي فقط بمطالب المِنح والسفر أو الاستشفاء لكل مريض أو العزاء لمن وافاه الاجل... هذا مطلوب انسانيا ولكن هل قارن اتحاد الكتاب التونسيين نفسه مثلا باتحاد كتّاب مصر أو المغرب الذين ينزلون الى الشوارع ويقودون الاعتصامات والمسيرات نصرة للفلسطينيين واللبنانيين مثلا؟ ويقاطعون كل مطبّع ويصدرون بيانات المساندة وتصدح حناجرهم في الاذاعات والتلفزات ويحبّرون المقالات دفاعا عن قضايا الحرية والكرامة؟

هي طاحونة الشيء المعتاد كما عهدنا ذلك منذ عقود: مآدب ومغانم ومواقع ومناصب وتذاكر سفر...

متى اتّحد الكتّاب؟*

بقلم : منصف المزغنّي

1 -

اتحاد الكتاب مؤسسة اصلها تجميع الكتاب (وهل يجتمعون ؟) والتجميع يعني التوحيد ، والتجويق والتجويف ، والغاء التنوع ،والتمايز في الموقف الفني والادبي والسياسي ،،،

2 -

والاتحاد هو صوت واحد ، ومجموعة زهور متنوعة مقطوفة ومقصوفة من نباتات شتى ، ومحبوسة في باقة واحدة وكل وردة فقدت عطرها الخصوصي ،،،

3 -

واتحاد الكتاب ، منذ البدء ، صناعة سوفياتية ستالينية ، وبوليسية لمعرفة ما يجب على الكتاب ان يكتبوه في اطار النظرية الحزبية المحدودة الذهن ، وهي شرطة سياسية تعرف ما في أفئدة الكتاب الذين يكتبون بالحبر الحزبي الموحّد ، وتملي على الكتاب ما يجب ان يكتبوه وما لا يجب ،،،

4 -

وانه من المدهش ان نرى اتحاد كتاب في دولة مثل تونس تدّعي انها قامت ، ذات عام ، بثورة !

5 -

وما اعرفه ، ان كاتبا مثل الجاحظ لم يكن في اتحاد كتاب العراق فرع البصرة ، وكذلك المتنبي الذي لم يكن منخرطا في اتحاد كتاب العراق فرع الكوفة ، كما لم يكن ابو العلاء المعري منتسبا ، او في حاجة الى الانتساب الى فرع المعرّة ،،،

وقس عليهم نزار قباني الذي كان أسس جزيرة شعرية خارج صحراء اتحاد الكتاب العرب .

6 -

اتحاد الكتاب التونسين غصن من شجرة اتحاد الادباء العرب الذي ادى مهمة ايام الراحل الاتحاد السوفياتي ،،

ولا أرى لاتحاد الكتاب أيّ دور ، أو محل وجود في عالم الكلمات ، أو يحتاج الى منحة وزارة الثقافة (المحدودة أصلا) ،،،

ولا ادلّ على هذا من ان رؤساء هذه الاتحادات في مختلف ما تبقى من الدول العربية هم نكرات ومخربشون يحبون تسويد الاوراق ، الادارية ، ويخترعون مصاريف لا لزوم لها ، ولا يعرفون عذاب الكتابة واشواق الادب ولكن ، صاروا خبراء اداريين في ابتزاز أموال المجموعة الوطنية عبر قناة وزارة الثقافة .

7 -

ولنا ان نسأل عن فترات الازدهار الادبي في تونس في بدايات القرن الماضي من خلال الصحافة الادبية فقط ، ولم يكونوا محتاجين الى مؤسسة كئيبة مثل (اتحاد كتاب) ،،،

ولنا في ابي القاسم الشابي ومحمود المسعدي وعلي الدوعاجي ، وغيرهم خير أمثلة على انهم

طيور حلقوا بالادب بعيدا
وعاشوا خارج عشّ اتحاد كتاب
وانطلقوا خارج الاغصان
وبعيدا عن ظلال شجرة الدولة .

أليس الكاتب رئيس جمهورية ابداعه ؟

ختاما : تعالوا نتصور ، للحظة واحدة ، ان غابريال غارسيا ماركيز ، عضوا في اتحاد الكتاب الكولومبيين !

---

* تدوينة نُشرت بتاريخ 27 سبتمبر 2024

الكاتب مالك الشويّخ لـ «للشارع المغاربي» :

عالم الطفولة عالم براءة ومرح وثروة تونس أطفالها وشبابها

فاخر بن سعيد

مالك الشويّخ هو كاتب اختص قلمهُ في أدب الطفل فأبدعَ وتفرّد فكان رائدا فيهِ يسعى إلى إسعاد الطفل في ذاته ومجتمعهِ وتتميز كتاباته بأسلوب تربوي ممتع ومشوقٍ يحاول من خلالها تقديم الأفضل للأطفالِ، كان لنا معهُ هذا الحوار الذي حاولنا من خلاله التعرف على خصائص هذا الضرب من الكتابة.

الأستاذ والكاتب مالك الشويّخ كيف تقدم نفسك للقرّاء؟

أنا مالك الشويّخ من صفاقس أستاذ عربية متقاعد، عملت في مدينتي قابس وصفاقس في تدريس اللغة والأدب العربي في الإعدادي والثانوي، ناشط في المجتمع المدني في جمعية خير جليس وجمعية معرض صفاقس لكتاب الطفل، عضو في اتحاد الكتّاب منذ سنة 2009. أكتب للأطفال واليافعين، ولي سلسلة عنوانها «مكتبة الطيور». وتحصّلت على شهادة الاحتفاء بالمؤلّفين بصفاقس 2010، 2014، 2018. وتمّت دعوتي للمشاركة ضمن فعاليات معرض صفاقس لكتاب الطفل سنة 2014 في الدورة 22 وكان لي لقاء مع الأطفال والمربّين. كما شاركت في كتاب جماعي للأطفال هو حكايات عربية نشره المركز القومي لثقافة الطفل بمصر الشقيقة سنة 2017.

أنا من المساهمين في منصّة رقمية هي كيدزوون للأطفال واليافعين التي تصدر مجلّة رقمية مجانية عنوانها «غيمة » ولي الشّرف أن أكون رئيس تحرير هذه المجلّة وتضمّ المجلّة نخبة من الكتّاب والرسّامين والمصمّمين والمهتمّين بثقافة الطفل، وصدر منها إلى حدّ الآن 12 عددا، ويشارك فيها أقلام من جميع البلدان العربية. وساهمتُ فيها بالعديد من القصص ولي ركن قارّ بعنوان: ومضة بيئية.

ما الهاجسُ الّذي يحرّك قلمك في علاقة بأدب الطفل؟

كانت والدتي ـ رحمها الله رحمة واسعة ـ حكواتية بارعة تحكي فتشدّنا إليها ونستمتع بحكاياتها ونضحك من الشخصيات ونتفاعل معها ونسأل أسئلة لا تنتهي، كما كنت أقرأ

قصصا من مجلّة السندباد الّتي كان أخي الأكبر يقتنيها، وعرفت كليلة ودمنة مبكّرا واستمتعت بالصور والقصص كان ذلك في فترة لم تظهر بعد وسائل الاتّصال الحديثة، بعد سنوات كتبت ما كان شفاهيا، وتجاوزت هذه المرحلة لتكون لي شخصيات مبتدعة وكنت أجد في الكتابة متعة ومعاناة ورغبة في الإفادة ولازلت أبذل جهدا لأطوّر تجربتي في الكتابة والاقتراب أكثر من عالم الطفل وشواغله.

وأنت صاحب التجربة في أدب الطفل كيف يمكن تقمُّص شخصية الطفل والتفكير بطريقته، ومن ثم الوصول إليه؟

سأجيبك الإجابة التقليدية المعروفة وهي حبّي للطفل، إنّ عالم الطفولة يسكننا وهو عالم البراءة والمرح وحبّ الاطّلاع والانطلاق بلا حدود. تونس ثروتها التي لا تقدّر بثمن هم أطفالها وشبابها ورعايتهم وتعليمهم وخلق أجيال تبني الوطن وترفع رايته عاليا في السّماء. ولا أخفي سرّا إن قلت إنّ الرغبة في إفادة الطفل وتربيته وإمتاعه، هي التي تقودني في كتابتي للأطفال واليافعين، من ذلك اهتمامي بالبيئة فقد كتبت قصصا في الأدب البيئي، ودعيت لإلقاء مداخلة عن تجربتي ضمن الندوة التي نظّمتها جمعية معرض صفاقس لكتاب الطفل سنة 2019، وكذلك مداخلة ألقيتها في الملتقى العربي لأدب الطفل مع عدد من الادباء والمفكّرين وكان عنوان الملتقى القصّة البيئية الموجّهة للأطفال واليافعين بتونس 2020 .

ترى برأيكم هل ممكن تقديم للطفل قصص السندباد البريّ والبحري، وافتح يا سمسم وغيرها... في عصر الهواتف الذّكيّة؟

هذه القصص أصبحت جزءا من التراث العالمي الحيّ وقصص ألف ليلة وليلة تحوّل العديد منها إلى أشرطة مصوّرة وأشرطة متحرّكة هي تراث يمكن الاستفادة منه. أنا أعتبر أدب الطفل مدرسة مفتوحة على الحياة يقدّم مادّة ممتعة للطفل الّذي سمّاه البعض القارئ الصامت في حين هو قارئ ذكيّ فطن، فأدب الطفل مدرسة للتربية ونشر القيم السامية يدخلها الطفل طائعا غير مرغم بل يقبل عليها بنهم وشغف للقراءة والمطالعة، والكتاب الورقي متوفّر والكتاب الرقمي دخل السّاحة وبدأ يحتلّ مكانة مرموقة.

والسؤال عن دور الهواتف الذكيّة والعالم الرقمي السّاحر مطروح على الجميع: الدولة والمجتمع المدني وكافة المربّين والأسرة..

فماذا فعلنا لترشيد استخدام الهواتف الذكيّة وماذا أعددنا لتوجيه الذكاء الاصطناعي الّذي بدأ يغزو عالمنا دون استئذان، ماذا فعلنا أمام موادّ تقدّم بصورة لا تقاوم، فيها إغراء وفيها إثارة بل تحفّ بها العديد من المخاطر. نحن نعيش في عصر الصورة فماذا نفعل إزاء هذا السّيل الجارف؟ هذه قضايا حيويّة وحارقة يجب أن ننكبّ على معالجتها لاستنباط حلول ناجعة وقابلة للتطبيق وعلينا أن تكون لنا رؤية استشرافية حتى لا تباغتنا المشاكل، مع العلم انّ اللوحة الرقمية دخلت ميدان التربية والتعليم وظهرت الكتب الرقمية والمجلاّت الرقمية وكذلك الصحف وعلينا ان نحسن الاختيار بوعي ودراية.

كيف ترى واقع النشر العربي في أدب الطفل؟

يعيش الكتاب الورقي أزمة وعمليّة مدّ وجزر، وتعاني دور النشر من غلاء تكاليف الطباعة والعزوف عن المطالعة وتبقى الحلقة الأضعف دائما هو الكاتب الّذي يبذل جهودا جبّارة ماديّا وأدبيّا وقد يحصل على حقوقه أو تضيع منه.

ونظرتك إلى هذا الواقع من خلال تجاربك الشخصية؟

شكرا على هذا السؤال الّذي أتجنّب عادة الإجابة عليه، أنا خضت مغامرة النشر على حسابي الخاصّ وهمّي الوحيد أن أنشر أعمالي ونجحت نسبيا في ذلك ونشرت لدى دور نشر بصفة محدودة ولا مانع لديّ أبدا أن أنشر أعمالي لدى دور نشر تعمل في خدمة أدب الطفل وتعطي للكاتب حقوقه.

ما رأيك في المسابقات الخاصة بأدب الطفل؟

هي مسابقات للتحفيز على الإبداع والكتابة وكثيرا ما سمعنا من يشتكي من لجان القراءة إذ من ضروري أن تتوفّر النزاهة في هذه اللجان، أنا شخصيا أنزعج من شروط المسابقات عدد الصفحات وموضوع الكتابة وغيرها.

وهل هي تساهم بالنهوض بأدب الطفل العربي؟

بصورة محدودة وفي المشرق ترصد الجوائز التي تكون قيّمة.

كيف تقيّم وضعية أدب الطفل في تونس اليوم؟

المنشورات الجديدة عديدة ولا يمكنني أن أعطي رأيا في ما ينشر ولكنّي أعتبر أنّ الكمّ الهائل من المنشورات ظاهرة إيجابية وستتولّى الأيّام انتقاء الأفضل في غياب شبه تامّ لمجلاّت الأطفال وفي غياب النقد والدراسة لهذا الأدب الخطير باستثناء مبادرات محدودة وغير كافية.

هل يختلف أدب الطفل عن غيره من الآداب؟

هو عمل إبداعي خاضع بالعكس من الأدب الموجّه للكهول إلى ضوابط عديدة وهو يخاطب فئات عمرية يبدأها البعض بالسنّ صفر إلى سنوات الطفولة الأولى إلى أن يصبح الطفل يافعا وبالطبع تكوين الطفل وجدانيا وثقافيا وعقليا مختلف عن المراحل الموالية، وينبغي لمن يكتب للأطفال أن يراعي ذلك لا أن يكتب عن شواغله التي قد لا تحرّك الطفل. وقد يعمد البعض بعنوان الرغبة في التربية إلى الوعظ والإرشاد فيسقط من حيث يدري او لا يدري في مطبّات لا يستسيغها أدب الطفل بل الأدب عموما.

وأين تكمن صعوبته في نظرك؟

إذا استوفى الكاتب جملة هذه الشروط فننتظر كتابة متميّزة ويبقى النجاح مرهونا بإقبال الطفل على مطالعة الكتاب، فإذا كان الكتاب دمه خفيف حسب عبارة الأديب يعقوب الشاروني وهو من رواد أدب الطفل في مصر والعالم العربي وأقبل الطفل على مطالعة الكتاب من أوّله إلى آخره فاعلم أنّ الكاتب قد نجح نجاحا باهرا في عمله.

هل يمكن للكاتب ان يختص في أدب الطفل فقط؟

هذا ممكن، وعلى المستوى الشخصي كتبت للأطفال وكتبت قصصا وخواطر ومذكّرات لكنّي لم أنشرها.

ما هي رسالتك لكلّ من يهتم بأدب الأطفال؟

ينبغي لمن يرغب أن يكتب للأطفال أن يراعي ثلاثة شروط أساسية:

أوّلا: امتلاك اللغة الأدبية الراقية والبعيدة عن التصنّع، مع مراعاة المستويات المختلفة للفئات العمرية التي نتوجّه إليها.

ثانيا: الخيال ليكون العالم القصصي رحبا جذّابا ولتشدّ الشخصيات القارئ الصّغير أمّا النسخ الركيك للواقع فهو بعيد عن الفنّ والإبداع.

ثالثا: الصبر والأناة فالنصوص تحتاج منّا إلى الكتابة فالمراجعة فالتدقيق حتى يكتمل العمل ويصبح صالحا للنشر.

ما هو الحلّ لنعيد الطفل إلى الكتاب والمطالعة؟

كثيرا ما يشتكي الأولياء من عزوف أبنائهم عن المطالعة بل يشتكون أحيانا من ابتعاد الطفل عندما تتقدّم به السنّ عن الكتاب لأنّ المطالعة تجد منافسا جديّا هو وسائل التواصل الحديثة ومع الأسف لم تصبح المطالعة من التقاليد الراسخة لدينا فالأب لا يطالع والأمّ لا تطالع، ويمكن أن تلعب المؤسسات التربوية دورا أساسيّا بالإضافة إلى جمعيات المجتمع المدني من ذلك تنظيم أنشطة ثقافية تجمع بين الترفيه والإفادة يجد فيها الطفل ذاته فيُمسرِحُ القصص التي يطالعها ويرسم ويصنع العرائس والدّمى ويتعلّم القراءة والإلقاء ويمكن أن يوظّف الوسائط الحديثة ويستخدمها. الكثير من التجارب كانت ثريّة وناجحة مع تلاميذ من مختلف الأعمار.

ما هي مشاريعك الأدبية المستقبلية؟

لي أعمال تنتظر إعادة النشر منها رواية لليافعين عنوانها: لصوص القلعة وقد كتب عنها الأديب المغربي صديق تونس العربي بنجلّون مقالة أشاد فيها بالعمل كما سأنشر عملين للفئة العمرية 8 / 12 سنة الأوّل بعنوان الميدالية الذّهبية، والثاني بعنوان يوميات الفتى ياسين، ولي سلسلة من القصص للفئة العمرية 3 /7 سنوات أنتظر أن أجد ناشرا لنشرها وكذلك كتابات في الثقافة البيئية، ويتواصل العمل إلى نهاية العمر إن شاء الله.

قصص أهالي غرب القيروان في «الأوج الفسيح» لكمال الهلالي

حسونة مصباحي

في رواية: «بيدرو باراما» للمكسيكي خوان رولفو، ينطلق خوان بريسادو إثر وفاة والدته إلى بلدة «كومالا» بحثا عن والده. عند وصوله إلى هناك يجد البلدة مقفرة تماما من أهلها وليس فيها غير الأشباح التي تطوف فيها نهارا وليلا. ويعمد خوان رولفو إلى خلط الواقع بالخيال ليجعل الأموات الأشباح يتكلمون، ويروون قصصا وحكايات غريبة تساعد خوان بريسادو على كشف فصول من حياة والده. بهذه الرواية القصيرة والمكثفة التي بفضلها ابتكر خوان رولفو ما أصبح يُسمى ب»الواقعية السحرية»، والتي قال عنها بورخيس بإنها» أعظم رواية في الأدب الاسباني، وفي الأدب العالمي»، تأثر الكاتب التونسي كمال الهلالي المقل في الكتابة مثل خوان رولفو إذ ليس في رصيده إلى حدّ الآن وقد تجاوز سن الخمسين سوى مجموعة قصصية واحدة، فجاءت روايته الصادرة مطلع العام الحالي عن «العيون المعاصرة» بعنوان :»الأوج الفسيح» قصيرة ومكثفة هي أيضا. وفيها نقرأ قصصا غريبة وعجيبة عن أهالي بلدة حفوز، مسقط رأس الكاتب، الواقعة غرب القيروان. والفضاء الجغرافي هو الجامع بين الشخصيات الكثيرة التي تحفل بها هذه الرواية، وليست فقط الروابط العائلية والقبلية وغيرها. وفي هذا الفضاء تتحرك الشخصيات، وتصارع من أجل البقاء على قيد الحياة خصوصا في أزمنة الأزمات والكوارث الكبيرة سواء كانت طبيعية أم اجتماعية أم سياسية أم غيرها. وهذه الشخصيات مختلفة ومتنوعة... مزارعون فقراء يقاومون القحط والمجاعات وظلم الحكام، وسحرة ودراويش يوهمون الناس بأنهم قادرون على الاتيان بالعجب العجاب في هذا لأمر أو ذاك، وفي تخصيب النساء العواقر، وفي معالجة الأمراض الخطيرة، وفي تفسير الأحلام وتفكيك ألغازها، وفتيات صغيرات جميلات يفقدن الأمل فينتحرن، وعجائز مُتخصصات في فعل الخير أو الشر، وأرامل فقدن أزواجهن مبكرا، وحكام صغار متسلطون يتناسلون ليكونوا على نفس الصورة مهما اختلفت الأزمنة والحقب، وسلفيون متطرفون لا يترددون في ذبح أقاربهم، ومراهقون يختطفهم الموت مبكرا تاركين لوعة في قلوب أمهاتهن. وموغلا في التخييل، يجعل كمال الهلالي الحيوانات والطيور تتكلم. فالغراب يراقب الأحداث من فوق:» يذكر الغراب النظرة الأخيرة لعجوز نحيلة رقيقة الحاجبين وشعرها أحمر حين حطّ على شجرة عارية الأغصان وقد تفاجأ بوجودها هناك. كانت تتوسّد ذراعيها مُستلقية على التراب». والأحمرة والبغال تقاسم شقاء أولئك المعذبين في الأرض الذين لا يرثون عن أجدادهم سوى الفقر والشقاء :»أحمرة وبغال تحملُ متاعهم القليل: خيام وقدور وشكوات وجرار ودجاج

كمال الهلالي

رُبط بالمحارم بين الأغراض المرصوفة بإحكام في الأدواح المصنوعة من أعود الدفلى. كانوا يمشون صلمتين. النساء يُلقمن الأطفال أثداءهن الجافة». والنحل حاضر أيضا في «الأوج الفسيح» :»نفرَ النحلُ من الأجباع. أية رائحة كانت تتبعها الملكة لتغادر مع خلاياها إلى عمق الغابة؟ ربما نفذت إلى مسامّها عطور زهور ونباتات لا توجد إلا في عمق جبل الصنوبر قريبا من ينابيع جعلها رهْطُ السلفيين الجهاديين حُكْرا عليهم حتى أن الطير لم تكن تقربهم»». أما طائر السويدة فقد نسى من كان يرغب فيه وهو يعرج إلى السماء: «أن يجتني من الغيمة المفردة أجزاء يُدثّرُ بها عشه ويجعله ناعما». وفي «ظل النور العذب، يبرك الحصان على جنبه في مرقده المسوّى بعناية. ينظر إلى الحوش وإلى البيوت المشرعة الأبواب والنوافذ، وإلى الأغنام التي التصق بعضها ببعض».

في «الأوج الفسيح «، الفضاء واحد ، أما الزمن فمتعدد، وهو يتمطّط ليربط بين ما سمي ب»الربيع العربي» الذي أدّى إلى انهيار نظام بن علي في مطلع عام2011، والنصف الثاني من القرن التاسع عشر الذي شهد «انتفاضة العربان» بقيادة علي بن غذاهم. وقد اندلعت تلك الانتفاضة سنة 1864في الوسط الغربي التونسي بسبب المظالم المسلطة على سكان الأرياف، وارتفاع الجباية(لضرائب)، ثم لم يلبث أن امتد لهب تلك الانتفاضة ليشمل كامل أنحاء البلاد. ولعل كمال الهلالي أراد أن يوحي لنا بأن التاريخ يُعيد نفسه، وأن الأوضاع ظلت على حالها رغم أن الحكام فعلوا كلّ ما وسعهم ليوهموا الناس بخلاف ذلك. وربما لهذا السبب افتتح روايته بذكر نتف من أحداث «انتفاضة العربان» من خلال بدوي يُدعى فرج يلعب لعبة المشارك فيها إلاّ أنه مشغول في الحقيقة بهمومه الخاصة:» ترك فرج الثوار على ثغور الطرقات وفي مداخل المدن، وعاد لأنه يرغب في حصاد حقله. انسلّ من بينهم وقد حسب أنه الوحيد الذي سيفعل ذلك، وأن الثوار سيكملون ثورتهم أملا في أن يرتفع الظلم المسلّط على رقابهم بعد أن قرر الباي أن يُضاعف الضريبة الواجبة على الرؤوس من36 إلى 72ريالا». ورغم أنها كسبت ألاف الأنصار في جميع انحاء البلاد، فإن «انتفاضة العربان» فشلت في النهاية، واقتيد زعماؤها وقادتها إلى السجون أو إلى المشانق. وبينهم من ذبحوا مثل الخرفان في باحة قصر الباي. ولم تكن «انتفاضة الربيع العربي» في تونس مختلفة عن «انتفاضة العربان». فبعد انهيار نظام بن علي في الرابع عشر من شعر يناير ، ظنّ التونسيون أنهم سينعمون بالديمقراطية والحرية والعدالة الاجتماعية، إلاّ أن انتفاضتهم سرعان من كشفت لهم عن «وجهها القبيح» لتغرق البلاد من أقصاها إلى أدناها في العنف والفوضى والهمجية. وفي «الأوج الفسيح»، يصف لنا كمال الهلالي بدقة تداعيات فشل «انتفاضة الربيع العربي» على سكان أرياف غرب القيروان. فقد أدى ظهور لسلفية الجهادية إلى تهشم الروابط العائلية والقبلية لنعاين أن الشاب الذي التحق بالجهاديين في الجبل يجد متعة في قتل أحد أقاربه يعمل في سلك الأمن الوطني، أو في ذبح راع في سن المراهقة بتهمة التخابر من الأجهزة الأمنية. وبذلك تزداد حياة أهالي الريف تعكرا وعسرا إذ أنه لم يعد يكفيهم تحمل القحط والجوع والفقر، بل يتوجب عليهم أن يواجهوا أيضا العنف السلفي المسلح الذي يمزق الروابط الإنسانية والعائلية والعشائرية التي كانت تجمع بينهم، زارعا في قلوبهم الحقد والبغضاء، ومحرضا إياهم على الاقتتال والتناحر.

ثمة وحشة قاتمة تُخيم على رواية «الأوج الفسيح» من البداية إلى النهاية بحث تكاد تكون مقفرة تماما من لحظات الفرح والسعادة. وحتى وإن لمعت مثل هذه اللحظات في البعض من مقاطع الرواية، فإنها سرعان ما تخبو وتنطفئ لتعود الوحشة من جديد بأشد سوادا وكثافة. ولعل كل هذا يعكس الأوضاع في تونس التي تعيش ما يقارب 15عاما قلاقل واضطرابات وفوضى سدت كل أفق للتفاؤل والأمل. ومن الناحية اللغوية، أفلح كمال الهلالي في ابتكار لغة تعكس أجواء وطقوس أهالي منطقة غرب القيروان. أما من الناحية الفنية فقد نجح فيها إلى حد ما ، غير أن كثرة الشخصيات وكثرة الأحداث التي تطرق إليها جعلته أحيانا يفقد الخيط ليجد القارئ نفسه مجبرا أحيانا على إعادة قراءة هذا الفصل أو ذاك لكي يتمكن من الربط بين الأحداث والشخصيات. مع ذلك، أعتقد أن رواية «الأوج الفسيح» من أفضل الروايات التي صدرت في مطلع سنة 2024.

شواغل القصة في «وطن وسجائر.. بالتقسيط» لأحمد السقال

عبد الله المتقي

الأنسان الذي لم يعد له وطن،
تصبح الكتابة مكانا ليعيش فيه»
ثيودور أدورنو

بداءة، دعونا نتفق أن المتتبع لإيقاع القصة القصيرة بالمغرب، يلاحظ أنها تواصل تقدمها بثبات، وقطعت أشواطا في ترسيخ مكانتها على الرغم من سطوع نجم الرواية من خلال أسماء دالة «لأنها الكبسولة الصغيرة، المختزنة للأسئلة الكبيرة، أو الطلقة الإبداعية، التي تصيب هدفها للتو»1.

وعطفا على ما سبق، يعتبر الفقيد «أحمد السقال» نقطة قصصية مضيئة خبت سريعا، واحتفاء بذكرى رحيله السادسة، نقترب من مجموعته التي اختار لها من الأسماء « وطن وسجائر .. بالتقسيط « 2، الصادرة عن مطبعة ليتوغراف، تقع في 54 صفحة، وتشتمل على ثلاثة وعشرين قصة يغلب عليها القصر ،وتتفاوت مساحتها الورقية بين الطول والإيجاز، ومن عناوينها : سبحاني من إله، خدوش في الذاكرة، نشاز طفولة، حالة عادية جدا، آخر الشهر، ومضة شبه قصصية...

وأشير بالمناسبة إلى أنها المدونة القصصية الوحيدة في ريبورتوار الفقيد الذي تعرفت عليه عن قرب على هامش إحدى نسخ الملتقى الوطني للقصة بمشرع بلقصيري، وللتذكير والأمانة، كان الرجل مشاغبا عاشقا لليل، متهكما من الحياة، وكاتبا جيدا للقصة الموجزة .

فما الذي تقصه علينا هذه المجموعة؟ وما البناء الفني الذي انتهجه أحمد السقال في مجموعته اليتيمة « وطن وسجائر... بالتقسيط»؟

تنشغل قصص المجموعة بذواتها الساردة من خلال التقاط تمزقاتها، همومها، توتراتها، مفارقاتها، حيرتها وقلقها المركب والملتبس، ومدى اشتباكاتها مع عنف الواقع بتعريته، والاستماع إلى ذبذباته الواقعية والعجيبة.

وعليه، تضعنا قصة «آخر الشهر»، أمام شخصية تحدق في لائحة طويلة من المصاريف تنتظر أداءها: «نظر إلى فاتورة الكهرباء والماء والهاتف، في بائع الخضر، الجزار، السجائر، وفي بذلة تجدد احترام الناس له، وفي محلول يقطع سعال صاحبه أسابيع « ص41، بيد أن هزالة الراتب الشهري لا يسمن من جوع:» ثم نظر إلى راتبه ملفوفا في ظرف مهترئ، فكر طويلا، غرق في التفكير، لم يسعفه أحد» ص 41

هكذا ينحاز أحمد السقال إنسانيا وإبداعيا، للفئة الدونية التي تدور عليها رحى الكدح والقهر، تفاقت معاناتها وتحطمت كل طموحاتها وآمالها، فثمة فساد يقصم ظهر المجتمع الذي يرزح الطبقية. .

أما قصة « شعيب «، فتحكي عن شخصية شعيب الذي غيبه الموت، ليترك خلفه عربته وحيدة : « هذا الصباح ظلت عربة شعيب يتيمة جوار الكرسي « ص9.

هذا ما يبدو للقراءة العابرة والباردة، بيد أن القراءة المتأنية والمتفحصة، تكشف عن مكر قصصي يرى موت « شعيب» حياة أخرى للموت بالتناوب، والآتي نسخ من « شعيب :» إن مات شعيب فهناك شعيب جديد سوف يسطو على العربة والمكان، الموت بالتقسيط منتوج محلي

أحمد السقال

رائج « ص9، إنه وصف لواقع الحال الذي يعاد إنتاجه كما هو كائن ومعيش، وليس كما ينبغي أن يكون .

وللهجرة والعهر حضور لا فت في قصة « وطن وسجائر .. بالتقسيط «، يحكي السارد بأسلوب جارح طلب أمه للطلاق من أبيه بسبب إدمانه وإفراطه في السكر :» وكان أطفال الحي يزفونه يوميا إلى البيت حيين يعود مساء، النشيد واحد والحجارة أعداد :» والسكايري بوقرعة، غير احشم نهار الجمعة « ص39، أمام هذا الواقع يسفر الأب خارج الوطن، مما تنغمس الأم في علاقات مشبوهة :» وأمي أراها أحيانا وبطنها منتفخة، فلا أسأل عن الأب « .ص40

وكذلك يرصد القاص في قصة « حالات عادية ...جدا» التقاء «عمر» بسائح أجنبي يقترح عليه جمع خارج ليلتحق به ، لكنه يتفاجأ بحلمه ينهار : « الذين يعرفون عمر، يحكون أنه انطلق في جريه بين أحياءالمدينة، منذ ذلك المساء الذي أخبرته أمه أنها لا تتوفر على أية وثيقة تخصه، وأنها لم يسبق لها أن أنجبته يوما ,,أبدا» ص 30

وفي جميع الأحوال الجارحة، ترشح القصتين ببعض من التفسخ الأسري الذي يسترق القاص السمع إلى ذبذباته، ويلتقط صورا من عنف واقع الحال الذي يحبل بالعهارة والتبني المجهول ،بالهروب من الوطن، وبالإحباط واليأس، بعين سينمائية ساخرة ومشاغبة، وملائمة لهذا الواقع المكتظ بالمفارقات والخبر اليقين عند شاعر الأعالي محمد بنطلحة :» ليتني أعمى « .

في بعض من نصوصه القصصية تهرب القصة إلى الفانتازيا والغرائبية ، والخروج من الأليف ليصير حالة شاذة، ومن ثم ينتج القلق والعلاقة المتوترة بعفن الواقع، في قصة « خدوش في الذاكرة « تطوي شخصية القصصية كفنها، يد تغسل وجه الذات الساردة، والثانية تطلب إعفاءها من هذه الرتابة اليومية، وفي قصته « نتوء» يصور الكاتب من زاوية فانتازية رجلا يقف أمام المرآة ليتفاجأ بنتوءات بارزة ومرتفعة في رأسه :» النتوء على رأسه يكبر، يأخذ شكل غريبا ولا يمكن للمرآة أن تخونه « ص7، بل « يالهي إنه شكل ضفدع النتوء أخذ شكل ضفدع يتربع رأسي « ص 7، وأمام هذا التحول والمسخ لقنة رأسه يفكر في زيارة الطبيب .

وعن طريق هذا اللعب القصصي الفانتاستيكي يتمكن القاص من التقاط ذات تهجس بالمعاناة مع نفسها، وأخيرا بحيونتها ومسخها :

وفجأة سمع صوتا : إلى أين ؟

رد دون أن يعرف مصدر الصوت : إلى الطبيب

أي طبيب ياهذا ؟ خذني أولا إلى البيطري لينظر في أمر هذا التضخم الذي أصاب أطرافي وأخذ شكل إنسان « ص 7

هكذا، يتمكن القاص من تحويل المألوف إلى اللامألوف، والواقع إلى طقس عجائبي قوامه المفارقة والسخرية مما يفتح شهية القارئ، ومن ثم، اصطياده كي يتفاعل مع أحداثها وشخصياتها وسماتها الجمالية .

لا ريب أن المنصت لنصوص أحمد السقال « وطن وسجائر ... بالتقسيط» يدرك بعض الملامح الجمالية الثاوية في المجموعة كالاعتناء باللغة القصصية معجما ودلالة أثناء بناية الحكاية، وأحيانا شعرنتها، ومن ثم تصيد القارئ للإمساك بالمعنى .

وإلى جانب الاعتناء باللغة يحضر التوسل بالتهجين عبر تلهيج اللسان اللاتيني :» الوثائق أمرها بسيط ماي فراند» ص 29، وهذا من شأنه خلخلة النقاء اللغوي، وتنشيط فعل القراءة، ويؤشر على المثاقفة من منظر الصراع الثقافي .

ولما كان الحوار من العناصر البنائية السردية التي يوظفها الكاتب لبناء نصه، فقد قامت مجموعة من النصوص على حوارات متراكبة، من بينها الحوار الخارجي الذي تتولى فيه الشخصيات، أمر نفسها بنفسها لتنطق بأقوالها بنحو مباشر، كما في قصص : « سبحانك كم إله»، «زمن من .. هنا «، و» حقيقة ما « ،ثم الحوار الداخلي القصصية يتيح للش*خصية التعبير عما تريد بكل حرية، ويطلعنا عما يراودها من أقوال وأفكار داخلية، لأنه خطاب لا رقابة فيه، نقرأ في قصة «نتوء» : « أمام المرآة أحس بالعرق يرفع من منسوب صبيبه :

«يالهي إنه شكل ضفدع، النتوء أخذ شكل ضفدع يتربع رأسي « ص7

ومجمل القول، بعد هذه الرحلة القصيرة في قصص «وطن وسجائر ..بالتقسيط» للراحل أحمد السقال، يتبين أنها اشتغلت على موضوعات حساسة جريئة وساخرة، تحكي وتترجم هموما مفردة بصيغة الجمع، وبلمسات شعرية وإنسانية، وخير الكلام تغمد الله الفقيد بواسع رحمته ,

العرائش : شتنبر 2024

—

أحمد السقال، « وطن وسجائر بالتقسيط « ص ،مكتبة المدارس، 2016

نجيب العوفي، «كأن الحياة قصة قصيرة»، ليتوغراف ،2010

قراءة في قصيد " همس المطر " للشاعر د.توفيق النّجاحي :

شعرية الايقاع في القصيد العمودي

أ. عبد الدائم عمري

يقول حسان بن ثابت رضي الله عنه.
تغنَّ في كلّ شعر أنت قائله
إنّ الغناء لهذا الشعر مضمار

ويضيف ابن عاشور شارحا لمقدمة المرزوقي على ديوان الحماسة " إن أوزان الشعر وضروبه تتفاضل بمقدار تناسب الحركات والسكنات كما هو شأن الموسيقى" و" معيار لذيذ الوزن التغني بالشعر فإذا استقام للقارئ ذلك فهو حسن الإيقاع، لان الغناء تظهر به خصال الشعر، كما يظهر المضمار خصال الخيل." (ابن عاشور:146). ولا تتحقق هذه الخصال في القصيدة الا متى صدرت عن طبع وابتعد الشاعر عن التكلف، وجاءت الابيات كانها " افرغت افراغا واحدا " على حد عبارة الجاحظ ، قوافيها متمكنة تابى على الاستبدال والتغيير، والمعاني فيها آخذة برقاب بعضها يستدعي فيها السابق اللاحق، يرق فيها اللفظ في موضع الرقة وياتي جزلا فخما في موضع الفخامة والتهويل وتلك لعمري مقاييس الفصاحة كما يحددها ابن عاشورفي شرحه لمقدمة المرزوقي على حماسة ابي تمام.

ان الناظر في قصيدة د. توفيق النجاحي في ضوء ما تقدم يقف منذ البيت الأول على الحضور الطاغي للغناء والإيقاع، إذ اختار لها من البحور مجزوء الكامل وتفعيلاته متفاعلن متفاعلن / متفاعلن متفاعلن وهو بحر" تغلب عليه الحركات، فخم جليل مع عنصر ترنمي ظاهر، وهو بحر كأنما خلق للتغني المحض "(المرشد إلى أشعار العرب:302). وسر الإبداع فيه أن يغلب الشاعر الحركات (مُتَفاعلن) على السكنات (مُتْفاعلن) طورا ويغلب السكنات على الحركات طورا آخر ويوازن بينهما أخرى.(المرشد إلى أشعار العرب: 164).

ولقد استثمر الشاعر النجاحي كل الطاقات الايقاعية للبحر أفقيا على مستوى البيت الواحد إذ راوح بين السكنات والحركات بمقدار منتظم لكسر رتابة الكامل لكثرة حركاته كما استثمر طاقته الايقاعية عموديا على مستوى القصيدة كاملة إذ صدر الأبيات الثلاثة الأولى بالسكنات (متْفاعلن) والبيتين الموالين بالحركات (متَفاعلن) بما يجعله مقسمة إيقاعيا حسب النظام التالي (3 / 2 / 3 / 2/ 3) ، ويحول القصيدة أغنية للاحتفاء بالمطر وهي كذلك إذ صدرت بعد الأمطار الاخيرة، وكان الغيث قد انحبس كثيرا وبدأ اليأس والتوجس يدبان الى النفوس.

ويمكن تقسيم القصيدة الى لحظات ثلاث: لحظة الصمت والسكون وتستغرق الأبيات الاربعة

الأولى ولحظة الحركة والحياة في الابيات الستة الموالية ولحظة الحمد والشكر والدعاء في الأبيات الثلاثة الأخيرة.

الكون خاصمه الضّيا والليل أظلم واعتكر
والنّجم أخفته الغيوم فغاب واحتجب القمر
والكون يغرق في السّكون والصّمت مرسال النّذر
فكأنّه صوت الوعيد أتى يلوّح بالخطر

اما لحظة الصمت والسكون وقد استغرقتها الأبيات الاربعة الاولى فقد غلبت عليها الجمل الاسمية ممحضة للاستمرار تكثيفا لمعجم الياس وقد كنى عنه الشاعر بالتقابل الحاد بين " الضياء " وقد حذفت همزته ليس فقط للضرورة الشعرية وإنما تاكيدا لغيابه ، وبين معجم الظلمة " الليل، أظلم ، اعتكر ..."، وقد قام البيت الثاني على الترادف " أخفته، غاب، احتجب"، تكثيفا لمعنى الظلمة وتمكن الياس والخوف من النفوس، ولكنه يبقى دوما ذلك الصمت الذي يسبق العاصفة " والصمت مرسال النذر "، وعملا بقاعدة مطابقة المقال للمقام وظف الشاعر الالفاظ الجزلة الفخمة " اعتكر، مرسال النذر ، يلوح بالخطر، الهاميات". حتى يناسب الملفوظ الواصف هول اللحظة الموصوفة في مطلع القصيدة. ويختتم المقطع الاول ببيت ينتمي إلى الوحدة الأولى إيقاعيا، وإلى اللحظة الثانية مضمونيا موقع يذكر بحسن التخلص في عمود الشعر. إذ يمحضه للإعلان عن الغرض الرئيس في القصيدة وهو وصف المطر.

ويجيء همس الهاميات على السّطوح على الشّجر
يوحي بأنّك طفلها في حضنها ليل السّهر
مثل الغناء نحسّه عذب المنى حلو الأثر

كالشّدو كالتّطريب كالإيقاع إيقاع المطر
فيذوب إحساس الضّنا في مائها العذب العطر
ويزيل متّصل العناء فلا توجّس لا حذر

وبالتّحول من السّكون إلى الحركة ومن الصمت الى الحياة يتحول الشاعر من الجمل الاسمية إلى الجمل الفعلية الدالة على الحركة والحياة " يجيء ، يوحي ، يذوب، يزيل "، وإذا صوت " الهاميات " مثل الغناء "عذب مستطاب يانس له الانسان ويطمئن إليه ويزول معجم الظلمة الذي ساد في المقطع الاولل ليحل محله معجم الغناء والخصب " الغناء. الشدو. التطريب، الايقاع "، وعندما تملك المطر علي الشاعر نفسه وتستغرقه طفلا " في حضنها ليل السهر " تتراسل الحواس في البيت السابع فيدرك الصوت بحاسة اللمس أو التذوق "عذب المنى حلو الاثر ". وينتهي المقطع بتكرار النفي باعتماد لا النافية للجنس التي تنصب اسمها وتحذف خبرها وجوبا لانه في حكم الثالث المرفوع. " لا توجس، لا حذر " تاكيدا للإحساس بالامن والاطمئنان مع نزول المطر.

إن احتفاء الشاعر بالمطر في لحظة الحركة والحياة يرجع أصداء طقوس تراثية ثاوية اندثرت أو كادت تندثر ، إذ يخرج الاطفال عندما يطول انحباس المطر في محفل يغنون وينشدون، ويقال إنهم لا يعودون إلى بيوتهم إلا وقد بلل المطر شعورهم.

يا رحمة القدر المذاب جداولا في كل برّ
الحمد حتى يبلغ الحمد المدى مد البصر
أو بعد ذلك حينما يصل المدى للمستقر

ويختم الشاعر القصيدة بلحظة الابتهال والشكر والدعاء موظفا النداء" يا رحمة القدر " و " المصدر " الحمد " الدال على الدعاء حمدا متصلا لا حدود له. ولعل القارئ لا يفوته شرف المعنى وطرافته في تشبيه رحمة الله وقدره بالماء المنساب في الجداول باعتماد " المذاب " أداة للتشبيه الماعا مرجعيا للآية الكريمة "... وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون "(سورة الأنبياء الاية 30).

.....

1 _ القرآن الكريم.
_ 2شرح المقدمة الادبية لشرح المرزوقي على ديوان الحماسة لأبي تمام، العلامة محمد الطاهر بن عاشور، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع بالرياض.الطبعة الاولى 1431 هجري.
_ 13 لمرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، عبد الله الطيب، الطبعة الاولى، الكويت، 1990

«الصراع الجذري ضد الاستبداد السياسي والأرثوذوكسية اللاهوتية» لعمر بن بوجليدة

ريبال بن عبد الله

إشكال: على عتبة الحداثة، عندما بدا أنّ الميتافيزيقا واللاهوت أخليا المكان نهائيا للمعقولية العلمية، فإن فكر كانط يمثل عودة الظهور المعلمّن لأنطولوجيا ال»كن» صلب أنطولوجيا ال»يكون»، العودة الكارثية للقانون والدين في قلب الفلسفة.
(جيوجيو أغامبن / صنيع الله ص 174)

يؤشر هذا الكتاب، إلى أنه بات واضحا أنّ الاشتغال على المفاهيم والتصوّرات وطرق التأصيل للعقائد والمعاني بطريقة سرديّة روائيّة، مدفونة في أكوام التقليد الأعمى والغفلة وما تصرّمَ وباد من أضاليل وأباطيل وتهاويل، غذّت المخيال الجماعي - فانكمش الإبداع وتدنّى- ضرورة واقتضاء تستوجبه اللّحظة والآن وإن استوعرناها في البدء.

وقد بَان وفق ما جاء في غلاف الكتاب أن إدراك دقائقها ببصيرة وتدبّرها، من شأنه أن يمهّد المسارب لمقاربات علميّة نقديّة صارمة مقصودها التحرّر من عبء مضن ثقيل، يتمثّل في التفسير الموروث والقراءة اللاهوتيّة التي تخلع التعالي والتقديس.

كما ظهر أنه في هذا المستوى بالذات ستتجلّى أشكال متطرّفة للانسحاب من الدنيويّ تسلك مسالك النجاة في انتظار أن يتصالح العالم مع الله، وسيستبين أنّ فعل العنف ليس يكون مجرّد قوّة بل تأثيرا في كل مرّة على أنفسنا وفي الأشياء وفي الآخرين.

وليس من ريب أنّه كان من آثار الدغمائيّة أن استحوذ على العقول نموذج واحد من التفكير ضيّق آفاق التبصّر أيّما تضييق وقلّص إمكانات التدبّر أيّما تقليص، بحيث يتمّ عرض حبكة وحيدة. ولقد كان السعي في هذا الكتاب حثيثا، إلى تطارح إشكاليّات في ارتباط بـ»النصّ»، وما تولّد عنه من مصطلحات ومفاهيم ومفردات، وإنشاء دعاوى وصوغ مبادئ، وما يترتّب عنها من استتباعات. وبالرغم من أنّ فصول الكتاب جاءت على استقلال كلّ واحد منها بموضوع مخصوص. وكان العزم معقود على أن تكون المواضيع موصولة بعضها ببعض، ومكمّلا بعضها لبعض، وما زاد في هذا الترابط هو أنه ينتظمها تساؤل واستشكال يتجلّى من خلال تأكيد «تعدّد القراءات». محاولة لاحتذاء المنهج

الفكريّ المؤمن بالتعدّد والمضادّ للتقوقع والانغلاق، والذي يجمع بين التخصّصات على تنوّعها.

وبناء على ما سبق بيانه، ينكشف أن الرأي استقر، على تقسيم الكتاب - في مستوى المحتوى - إلى: مقدمة وفصول جعل لكل منها مدخلا وعناصر ثم أنهي بخاتمة عامة.

أما المقدمة فتم تضمينها، بيان دواعي تطارح هذه الإشكاليات، وإبراز، كيف أنّ كلّ خطاب يسعى إلى أن يتحوّل إلى سلطة فيكون الانغلاق والتهميش والاستبعاد.

وقد تطرّق الفصل الأول، إلى التساؤل عن «العنف وتعطيل فيوضات المعنى وتعدد التأويل»، إذ استبان أنّ أغلب المآسي ترتكب في غلوّ مسرف باسم التعصّب للإلهي والدينيّ. وأبرز الفصل الثاني، «النبوّة وبهاء الإيمان: بين المهيب وانقطاع الوحي وانسحاب الإلهي»، ووقف في تقصّيه عند منعرج خطير جدّا في مجرى التوحيديّة السامية، لأنّه أخرج العلاقة بالإله الحقّ عن سلالة الشعب «المختار» وتراثه، فمحمد نبيّ عربيّ يحاول ولوج واقتحام الذّاكرة وتسجيل شعبه في روحانيّة التوحيد، هذا الذي انقفل وانغلق. إنّه صراع مع المستحيل عنيد.

وقد كُشف في الفصل الثالث والذي عنوانه «حلول الله في الكون بين رهبة المقدس وعنف التاريخ»، أنها عديدة هي الأسئلة التي وصلت إلى فرط من الإضاءة، جعلها تختفي منذ زمان طويل في مطاوي الإيمان أو في مظانّ الوضوح البريء. ولكنّ سؤالا عنيدا ومرعبا يأبى أن يستكين: هل يطال النقد النص القرآني أم يقتصر على الشروحات والتفاسير ؟ كما كانت الإيماءة، في الفصل الرابع: «الدين والسياسة: بين الرسالة الإيمانية والمشروع السياسي»، إلى أنّ ما لا يمكن أن تخطئه عين المتأمّل الحصيف ، هو أنّ الآداب السلطانيّة فاعلة بشدّة فريدة، حيث استمرّت، رافدا سريا، نعثر عليه طيّ المتون والهوامش، كنمط من الكتابة فصّل الكلام وأفاض القول في التبرير السياسيّ، المواكب لتحوّلات الدولة السلطانيّة، والدفاع عن استمراره. وأما الفصل الخامس (سبينوزا / أغامبن) فقد خصص لـ «قراءات» في مشروع سبينوزا السياسي وأردفت هذه القراءة بقراءة ثانية لكتاب «جيورجيو أغامبن»، «في الحنين الغامض لإعادة فعل لا يمكن إعادته».

وانعطف الفصل السادس: «في ضيافة المعاني الكونيّة داخل أفقنا الروحي»، يبسط الكلام في كيفية التعاطي مع النصوص، دركا للمعنى الذي تفيض به. وأورد الفصل السابع، محاولة ترجمة، لنصّ كتب حول المفكر، الفلسطيني - الأمريكي،»ادوارد سعيد»، « إزالة استعمار المعارف ونظريّاته المرتحلة». من جهة ما هي تمرين ودربة على مزيد اكتشاف آليات وطرائق تفكير الآخر. ولقد جاءت الخاتمة في شكل ببان النتائج التي استحصلها.

ولقد حاول الكتاب أن يوضح فيما سلف بيانه وبعد هذا التطواف، أن الفكر النقدي هو من هيّأ إلى الغايات سُبلها، إذ أراد دائما أن يعيد التفكير والفهم بنحو جذريّ في «الفرضيات التأسيسيّة» وخلخلة المسلّمات، وتصديع البداهات. ما يسهم في دفع المعاصرين إلى آفاق غير معهودة. هكذا كان البحث في المهمش من الروايات والمكنون في مغرزها والمنسيّ من السرود والمطموس من الأساطير والمختلف حوله من الخرافات والحكايا، واستردادها، ليستبيّن، كيف تشكلت الثقافة على حواف «النصّ» الذي يكتنفه كثير التباس، وقد جاورته وزاحمته النصوص الثواني وأتاحت الالتفاف على المجاز والشفوي في «الكتاب» المتفجّر بدفق المعنى.

ابن عبّاس الصّحابي المفسّر الزّاهد في مرآة الاستشراق

صلاح بوزيّان

1/ ابن عبّاس ابن عمّ النّبي: الصّحابي ابن عبّاس واحد من أبرز الشخصيات الإسلامية و هذا ما جعل عديد الباحثين و المستشرقين يتعرّضون إليه بالدّرس و قراءة تفاصيل حياته والوقوف عند أعماله و تدبّر مسيرته، فتاريخه حافل بالعلم والتّفسير و الأدب و التّواضع و الذّكاء ، مرّ بمحطّات مهمّة في حياته، اتّسمت بالهداية والصّبر والفضائل وأشهر هذه العلامات، الاقتداء بابن عمّه النّبي، عاش معه زمنا من طفولته، فانتفع بالحقائق و الآداب الإلهية يراها في معيشه و اقتدى به فأصغى إلى النّصائح و قيّد الاستنتاجات و حصّنه الله من ستور الغفلة وحجبها، فكان قلبه منوّرا بأنوار الهداية مهتديا إلى سُبل التّوفيق، عاش طفولته سعيدا في رياض جنّة الصّلاح مجيبا داعي ربّه مرتويا من ينابيع المعارف الإلهية يأخذها يوما بعد يوم، واستفاض كيانه من المدد النّبوي، فزيّنه الله بالأخلاق الشّريفة التي هي نتائج أخلاق الحبيب المصطفى صلّى الله عليه وسلّم، و لاحظ قلبه الحقّ سبحانه بعين التّعظيم مبكّرا عندما رأى وسمع الرّسول يفعل ذلك و اقتدى به، فانقطع إلى الله عمّا سواه ، تلكم هي التّربية المحمّدية التي نشأ بها ابن عبّاس و ترعرع فيها. و اسمه الكامل عبد الله بن العبّاس (3 ق هـ/618م – 68هـ/687م) بن عبد المطّلب شيبة بن هاشم بن عبد مناف بن قصيّ بن كلاب بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.و يُكنّى بأبي العبّاس أكبر أولاده وهو العبّاس. كان وسيما مهيبا كامل العقل فصيحا عذب الكلام قال عطاء: «ما رأيت القمر ليلة أربع عشرة إلاّ ذكرتُ وجه ابن عبّاس»، وقال مسروق:» كنت إذا رأيت ابن عباس ، قلت: أجمل النّاس، فإذا نطق قلت أفصح النّاس، فإذا تحدّث ، قلتُ أعلم النّاس». وقال ابن حجر:» روى أبو الحسن المدايني عن سحيم بن حفص عن أبي بكرة قال: قدم علينا ابن عبّاس البصرة و ما في العرب مثله حشما وعلما و ثيابا وجمالا وكلاما. و كان رضي الله عنه يحبّ أن يظهر أثر نعمة الله عليه، فكان يتأنّق في مظهره و ملبسه دون أن يتجاوز الحدّ المشروع، فقلد كان يلبس الثياب ذات الأثمان الغالية، و يتطيّب، و يحسن مظهره ما قدر».

2/ أثر دعاء النّبي لابن عبّاس: لم تكن حياة ابن عبّاس كحياة سائر الصّحابة ، فقد أثّرت قرابته الوثيقة بالنّبي في شخصيته و مساره التّاريخي و نهجه العلمي فهو ابن عمّ الرّسول، و هو أمر مهمّ و وضع اجتماعي مختلف كما أنتج وضعا علميا نموذجيًّا جمع فيه صاحبه الصّدق و الحياء وكمال الأخلاق والعلم و التّواضع، بل نال فيه الجمال بكلّ تجلّياته و أصنافه، ممّا جعلنا نقف في هذا المقال أمام صّحابي مفسّر فريد، عاش صحبته مع النّبي في وقت طفولته ، وأمضى فترة مهمّة من عمره الذّهبي في الرّحاب النّبوي ومع الصّحابة أهل الكمال و الوفاء و الحكمة و العزم، أدناه منه الحبيب المختار و علّمه و كان الغلام عبد الله بن عبّاس يرى سلوك النّبي مع أصحابه وأثناء الصّلاة في المسجد و في البيت ، و من حسن حضّه أن كانت زوج النّبي السيّدة ميمونة خالته فكان كثير التّردد على البيت النّبوي، يسمع ويرى خصوصيات العيش النّبوي ، بيت تعمّه البركة والأنوار و البساطة و يجتهد أهله في طاعة الله كامل الوقت، و في هذه الأجواء ربّت النّبي على كتف ابن عمّه ودعا له قائلا:»اللهم فقهه في الدّين وعلّمه التأويل». و العجيب أنّ صحبته للنّبي لم تكن طويلة فهي تبلغ نحو ثلاثين شهر و لكنّها بوزن عشرات السّنين ، أثمرت صحّابيا مفسّرا للقرآن عالما بالدّين و الشّعائر مؤدّبا للنّاس و قدوة صالحة استنفع به خلق كثير من الأمّة ، فعلّم النّاس و أنفق غالب وقته في التّعليم وإلقاء الدّروس في اتّزان و انسجام. وتذكر المصادر المختلفة أنّ عمره عند وفاة المصطفى بلغ 10 أو 13 أو 15 سنة. و المرجّح أنّه كان ابن عشر لحديث منقول عنه فقد روى أبو بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس أنّه قال: « تُوفي النّبي صلّى الله عليه وسلّم وأنا ابن عشر»1، وكانت ثمرات دعاء النّبي له واضحة. فأفاض الله عليه العلم ، وكان استثنائيا بكلّ المقاييس ولا يملك من يراه أو يعاشره أو يدرس تاريخه إلاّ أن يحترمه ويجلّه ، ولعلّ من شواهد رجاحة عقله شغفه بالعلم وتواضعه للصّحابة الأكبر منه سنّا و تردّده عليهم ليتعلّم ما فاته من أحاديث النّبي و توجيهاته أو يدعم ما رسخ في ذهنه بالتّثبّت ، فكان يسأل الكثير منهم في المسألة الواحدة بأدب، ويقول في هذا الشأن: « إن كنت لأسأل عن الأمر الواحد، ثلاثين من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه و سلّم». و قد بلغ مجموع ما رواه من أحاديث نبوي 1660 حديثا.و برع في التّفسير والحديث و الفقه، ممّا جعله يُعدّ واحدا من الفقهاء السبعة، وكان مرجع الصّحابة حين اختلافهم في مسألة فقهية، ولذلك نجد عائشة أمّ المؤمنين تقول فيه : « أعلم النّاس بمناسك الحجّ». وقال عبد الله بن عمرو بن العاص:» ابن عبّاس أعلمنا بما مضى، و أفقهنا في ما نزل ممّا لم يأت فيه شيء». 3/ ورع ابن عبّاس وتبتّله إلى الله: نشأ ابن عبّاس قرب النّبي في المسجد و البيت و مع الصّحابة ، وكانت أهمّ الأوقات المؤثّرة في بنائه الرّوحي هي التي قضّاها معه في البيت، كان يراه عابدا لله خاشعا ، قائما اللّيل يقرأ القرآن ، فنهل من فيض الإخلاص النّبوي ، ثمّ صحب الخليفة عمر بن الخطّاب الزّاهد القوّام المتعبّد لله ، كلّ هذه اللّحظات الخاصة ساهمت في بناء شخصيته و الارتقاء بإيمانه و تزكية روحه بأجود النّفحات و فشبّ فاضلا خلوقا ورعا واحدا من أهل الكمال، كان محبّا لله بلا حدود يصلّي ويقرأ القرآن و يبكي تقرّبا إلى الله ، فقد ذكر عبد الله بن أبي مليكة وصفا له ، قال: « صحبت ابن عبّاس من مكة إلى المدينة ، فكان يصلّي ركعتين فإذا نزل قام شطر اللّيل ، ويرتّل القرآن حرفا حرفا و يكثر في ذلك من التسبيح و التحميد».3/ الخليفة عمر بن الخطّاب يدني ابن عبّاس: كان عمر بن الخطّاب يدنيه أسوة برسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وقد ورد في الأثر عن زيد بن أسلم عن ابن عمر « أنّ عمر دعا ابن عبّاس فقرّبه، وكان يقول : رأيت رسول الله صلى عليه و سلّم دعاك يوما ، فمسح رأسك ، و تقل في فيك ، وقال : اللهم فقهه في الدّين وعلّمه التأويل2. ولذلك أخذ برأيه في ما أشكل من القرآن و ربّما في أمور أخرى سكتت المصادرعن ذكرها، نظنّ أنّ ابن عباس قد آثر التكتّم عليها أو هي من قبيل المسكوت عنها في عُرف الصّحابة أو وفق آداب الخلافة ، و رغم ذلك فقد ذكر عامر الشّعبي عن ابن عبّاس أخبره بوصيّة والده العبّاس و توجيهاته لمّا صار قريبا من الخليفة عمر، قال له : قال لي أبي:» يا بنيّ أرى أمير المؤمنين يقرّبك ، ويخلو بك. و يستشيرك مع أناس من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه و سلّم .فاحفظ عنّي ثلاثا : اتّق الله لا تفشين له سرًّا، و لا يجرّبن عليك كذبة، و لا تغتابنّ عنده أحدا». وقال ابن عبّاس:» كان عمر يسألني مع أصحاب محمّد صلّى الله عليه و سلّم. فكان يقول لي: «لا تتكلّم حتّى يتكلّموا، فإذا تكلّمتُ قال: غلبتموني أن تأتوا بما جاء به هذا الغلام الذي لم تجتمع شؤون رأسه». و كان الفاروق يقول :» يا

1 سير أعلام النبلاء ، ج3 ، ص332 .

2 سير أعلام النبلاء ، ج3 ، ص 332 .

ابن عباس قد طرأت علينا أقضية عضل ، وأنت لها ولأمثالها»3، و يصف سعد بن أبي وقّاص مكانة ابن عبّاس عند الفاروق فيقول : « ما رأيت أحدا أحضر فهما و لا ألبّ لبًّا ، ولا أكثر علما ، و لا أوسع حلما من ابن عبّاس ، ولقد رأيتُ عمر بن الخطّاب يدعوه للمعضلات ، ثمّ يقول عندك قد جاءتك معضلة ، ثمّ لا يُجاوز قوله ، وإنّ حوله لأهل بدر من المهاجرين والأنصار، وكان عمر يصفه بقوله: ذاكم فتى الكهول ، إنّ له لسانا سؤولا وقلبا عقول». هي أوصاف و أقوال تبيّن بجلاء قيمة هذا الصّحابي المفسّر، وكان ابن عبّاس يلتزم هذا الأدب فلا يتكلّم في مجلس يحضر فيه من هو أسنّ منه إلاّ إذا أُذِنَ له. و تُخبرنا المصادر أنّه كان للخليفة عمر مجلسا قرآنيا يجمع فتيانا من أهل القرآن وكان ابن عبّاس واحدا منهم ، استأثر باهتمام الخليفة وتقديره، فقد روى عبد الرحمان بن زيد حكاية عجيبة تتضمّن إشارات واضحة إلى عمق بصيرة ابن عبّاس و غزارة علمه ، و مدى درايته بمعاني آي القرآن، قال: « كان عمر بن الخطاب إذا صلّى السبحة و فرغ دخل مزبدا له ،فأرسل إلى فتيان قد قرؤوا القرآن ومنهم ابن عبّاس، قال فيأتون فيقرؤون القرآن و يتدارسون، فإذا كانت القائلة انصرف ، قال : فمرّوا بهذه الآية « وإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّه أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَ لَبِئْسَ المِهَادُ. وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللّهِ وَ اللَّهُ رَؤُوفٌ بِالعِبَادِ»4.فقال ابن عباس لبعض من كان بجانبه :اقتتل الرّجلان ، فسمع عمر ما قال ، فقال: وأيّ شيء قلت ؟ قال : لا شيء يا أمير المؤمنين . قال : ماذا قلت ، اقتتل الرّجلان ؟ قال : فلمّا رأى ذلك ابن عبّاس ، قال: أرى ها هنا أنّ من إذا أُمر بتقوى أخذته العزّة بالإثم ، وأرى من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله ، يقوم هذا فيأمر هذا بتقوى الله ، فإذا لم يقبل وأخذته العزّة بالإثم ، قال هذا : وأنا أشتري نفسي ، فقاتله فاقتتل الرّجلان ، فقال عمر : لله تلادك يا ابن عبّاس»5. و لكن كيف صَوّرَ الاستشراق شخصية ابن عبّاس؟

4/ ابن عبّاس في منظور الاستشراق: لقد لفتت انتباهنا مضامين كتاب نولدكه شيخ المستشرقين على حدّ توصيف عبد الرّحمان بدوي، يقول: « يُعدّ نولدكه شيخ المستشرقين الألمان غير مدافع ، وقد أتاح له نشاطه الالدّائب وألمعية ذهنه واطّلاعه الواسع على الآداب اليونانية ..أن يظفر بهذه المكانة ليس فقط بين المستشرقين الألمان بل بين المستشرقين جميعا». المستشرق الألماني تويودور نولدكه ، والكتاب في أجزائه الثلاثة (أطروحة دكتوراه) موسوم بتاريخ القرآن، اهتمّ فيه بنشأة القرآن و جمعه وتدوينه وروايته ، و عالج مسألة ترتيب السّور، و لعلّ المكانة الرّفيعة التي حضي بها بين المستشرقين تعود إلى أنّه كان أوّل مستشرق أعاد ترتيب السّور القرآنية في ضوء الظّروف التّاريخية التي مرّت بها رحلة نشر الإسلام . و خصّص الجزء الأوّل من كتابه للبحث في أصل القرآن و غاص في مسألة النّبوة و الوحي و حاول أن يبيّن ما يربطهما من علاقة ، و تبدو للقارئ أهمّية هذا العمل إلاّ أنّه يحمل طعنات خفيّة في حقيقة الوحي ونبّوة الرّسول محمّد و كان ذلك عن قصد من أجل بناء صورة مشوّهة عن الإسلام بتشويه النّبي و الطّعن في صدق النّبوة و نزول الوحي، وقسّم سُور القرآن إلى مكيّة ومدنية ، و أراد أن يقيم روابط منطقية بين السّيرة النبوية من جهة و تاريخ السُّور مكّيها ومدنيّها ، وهو في كلّ مرّة يسعى إلى نقل الشّك إلى ذهن القارئ ، فيبدو كلامه في ظاهر منطقي و سليم إلاّ أنّه يقوم على الشّك والظّن ، و لهذا الأمر أمثلة كثيرة لا يسعنا المقال لذكرها ذلك أنّنا سنهتمّ بما قاله عن ابن عبّاس من الأخبار الزّائفة التي لم تذكرها المصادر الإسلامية، و سنتطرق إليها تباعا ، بعد استكمال عرض مضامين الجزئين الثّاني و الثالث من الكتاب، واهتمّ نولدكه في الجزء الثّاني من كتابه بجمع القرآن بداية بالوحي ثمّ جهود التدوين الأولى في حياة النّبي صلّى الله عليه و سلّم ، و تحدّث عن الحُفّاظ غير الأصليين من بعده و نعت هذا الجزء بالمعرفة الشعبية للخلفاء، و اهتمّ بعلي بن أبي طالب و زيد بن ثابت و مسائل أخرى ، وأفرد الجزء الثّالث لتاريخ نصّ القرآن . و لعلّ ما لفت انتباهنا هو ما ذكره نولدكه في الجزء الثانّي عنوانه (جمع القرآن) و تحديدا في العنصر الموسوم بالمصادر المحمّدية في العنوان: واضعوا التفسير ابن عبّاس وتلاميذه ، من أخبار عن ابن عبّاس فيها الصّحيح و أغلبها مدسوسة لا مصدر لها ، فقد ذكر أنّ ابن عبّاس كان يكثر التّثبّت في المسائل حتّى أنّه ليسأل في المسألة الواحدة عديد الصّحابة، يقول: « و قد اكتسب معرفته الكبيرة في الروايات من خلال سؤاله الدّؤوب للصّحابة». و هو أمر صحيح أثبته ابن عبّاس واصفا تدقيقه في نقل المعرفة و الإحاطة بالعلم و التّزود من مصار صحّابية متعدّدة تثري فهمه و تضمن علمه فقد قال:» إن كنت لأسأل عن الأمر الواحد، ثلاثين من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه و سلّم»6. إلاّ أنّ نولدكه أشار إلى التقاء ابن عبّاس باليهود في بيته ، وأنّه استمدّ منهم مواد أخرى، ويبدو هذا الأمر محض افتراء ، يقول : « و قد استمدّ ابن عبّاس مواد أخرى من اليهود الذين كان يلتقيهم في بيته «. و اكتفى نولدكه بالإشارة ولم يبيّن محتوى هذه المواد ولم يذكر أسماء اليهود. ونجد في كلام ابن عبّاس ما ينفي ما قاله المستشرق نولدكه و يبيّن كذبه وأنّه لم يجتمع بيهود و لم يعطهم ولم يأخذ منهم، يقول: « كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أحدث ، تقرؤونه محضا لم يشب، وقد حدّثكم أنّ أهل الكتاب بدّلوا كتاب الله و غيّروه وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا هو من عند الله، ليشتروا به ثمنا قليلا ، ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ، لا والله ما رأينا منهم رجلا يسألكم عن الذي أُنزل عليكم»7. يُبيّن كلام ابن عبّاس كذب المستشرق نولدكه عليه ، فقد حاول أن يزجّ بهذا الصّحابي المفسّر في غياهب الشّك و التّشويه ، ويلحق به تهمة اللّقاء باليهود ليهدّم صرحا من صروح الحديث و تفسير القرآن ، كما حاول التشكيك في الوحي و نبوّة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم ، فكيغ استعان ابن عباس باليهود و استقى منهم علوما في بيته وهو ينهى عن ذلك و يلتزم بنهيّ النّبي . كيف التقى بهم في بيته ؟. ولعلّ هذه الكذبة تلحقها أكاذيب أخرى. كما يتعرّض بالحديث عن تلاميذ ابن عبّاس و يشكّك في جهودهم و ينعت تفاسيرهم بالمتضاربة جاهلا بمبدإ تأويل القرآن ، يقول:» ولو أردنا أن نتصدّى لإعادة إنتاج آراء ابن عبّاس من أقوال أولئك الذين اعتمدوا عليه ، لفشلت هذه التجربة لأنّ هؤلاء الأشخاص يعارضون بعضهم بعضا في تفسير كلّ آية تقريبا.. لذا لا يمكن لنا إلاّ ن نعتبر إبراز مرجعية ابن عبّاس في أكثر الأحوال وهما لا غير»8. و رغم أن تيودور نولدكه قد استعمل المنهج التاريخي إلاّ أنّه غاص في الفرضيات وانتقاء الأخبار وتغليب الظّن ، ففسّر النّصوص و الوقائع تفسيرا لا يتلاءم مع معانيها ودلالاتها و سياقاتها التاريخية والاجتماعية و الثقافية ، و هنا يبدو التحامل واضحا و القراء المغرضة بيّنة ، رغم أنّه ادّعى الحياد و الموضوعية فإنّه تقيّد بانتمائه العقدي و إساءته الواضحة لشخصية النّبي و للوحي و القرآن و المدوّنين و المفسّرين ، إنّه هدم مقصود .5/ خاتمة القول.. جهود نولدكه لا خير فيها : و الحاصل أنّ مكانة نولدكه في تاريخ الاستشراق تبدو متناقضة مع ضوابط العمل الأكاديمي الذي ادّعى فيه الحياد و الصّرامة و التزام الموضوعية ، فكثيرا ما تبدو بداية كلامه متناقضة مع الخاتمة لينقل الشّك والتناقض إلى ذهن القارئ و يرسم صورة مشينة للإسلام و النّبي، فيعتبر الإسلام مجرّد حدث تاريخي هائل ، وأنّ نجاح انتشاره كان مقترنا بوجود عقول عربية مهترئة بدائية وجامدة تقبّلت هذا الدّين. و لكن كيف اهتمّت دراسات استشراقية بالأدب الجاهلي إذا كان المجتمع العربي قبل الإسلام بدائي وجامد . صحيح أنّه مجتمع مشرك له آلهة متعدّدة ولكنّه كان مجتمعا مثقّفا يمارس أنماط ثقافية و تجارية متعدّدة أبرزها الشعر و التّجارة و العبادة . فكانت هنالك عقول تفكّر وقلوب تؤمن و تعتقد في قوّة متعالية تمنح السعادة و البركة و تلبّي الطّلب ، رغم أنّه اعتقاد شركيّ. و لذلك ولغيره نعتقد أنّ أعمال نولدكه تفتقد النّزاهة و تتغذّى بالتحيّز إلى اليهود و تحتاج إلى مزيد الدّرس والرّد ، ردودا علمية مفيدة تكون بمثابة الدحض لأكوام الأكاذيب الغربية ، وإنصاف الجهود الاستشراقية الموضوعية و إبراز مواطن الثّراء و الإفادة فيها و تثمين النجاعة و الحياد . ولعلّ أبشع ما قاله تيودور نولدكه شيخ المستشرقين، أنّه وصف الإسلام والقرآن بمثابة الصياغة الجديدة لمضامين التّوراة

3 3 حياة الصحابة، م3، ص645.عبد الله بن عباس، أبوضيف حسن،كلية الدراسات الإسلامية،جامعة سوهاج، ع1، مصر، ص111

4 سورة البقرة ، الآيتان 206 ـ 207 .

5 تفسير جامع البيان في تفسير القرآن/ الطبري.

6 6 خالد محمد خالد ، رجال حول الرسول، ص 420

7 شرح صحيح البخاري .

8 نولدكه ، تاريخ القرآن ، ص 383 .

هل باستطاعتنا صنع الفرح؟

أبو أنيس عبد اللطيف بن سالم

صناعة الفرح تعتبر من الصناعات النادرة جدا في هذا العصر فلقد دأب العالم منذ زمن طويل على صناعة الحزن والكآبة عوضا عن صناعة الفرح وقد صار الناس فيه جميعا متشابهين من حيث المشاكل والصعوبات التي يتعرضون لها أو يقعون فيها سواء كانوا فقراء أو أغنياء وربما كانت مشاكل الأغنياء أكثر تعقيدا وأكثر ضغطا عليهم من مشاكل الفقراء وذلك لأسباب عديدة تربوية وأخلاقية واجتماعية يصعب حصرها ولكن يمكن تلخيصها في أن الفقراء أكثر تدربا على الصبر واللامبالاة بما يحدث لهم في هذه الحياة من الأغنياء ولم يقفوا كثيرا في وجه ما يفتن المال والذهب وما يتبعهما من المغريات وأنهم من جهة أخرى ليسوا مشاركين مباشرين في الدورة الاقتصادية لأنهم في الغالب مستهلكون أكثر منهم منتجون لذلك فإنهم ليسو داخلين في دائرة السباق بكل ما فيها من تنافس و شقاق ونفاق وإنما فقط نقع عليهم تبعاتها أما الأغنياء فإنهم في خضم المعركة بكل أبعادها هده المعركة التي اتسعت رقعتها وتضخمت رحاها حتى أخذت بأطراف العالم كله وأصبحت بالفعل «حرب الكل ضد الكل» التي أعلن عنها هوبز المفكر الأنقليزى منذ زمان وان ضحاياها ليسوا فقط هؤلاء الذين يموتون ويدفنون وإنما هم في الأكثر الباقون الذين لا يزالون أحياء يعانون.

ولا ننسى في هذه المعركة أو الحرب أن هموم الكبار فيها تنتقل إلى الصغار بفعل عامل الوراثة المتحكم فينا وما دمنا نعيش نفس هذه ظروف وان معاناة الأغنياء فيها تنعكس على الفقراء وتزيد في معاناتهم هم أيضا وفي همومهم وهكذا فان الأحوال المكفهرة في العالم تكتنف الجميع وكل ضغط ينتج عنه ضغط والضغط يولد الانفجار والانفجار يشعل النار وهكذا نجد أنفسنا أمام خراب ودمار فهل بقى لنا رغم كل هذا من أمل في وسيلة الفرح ؟

لقد تعددت بالفعل الوسائل والأدوات و الآليات المختلفة التي قد صنعت لهذا الغرض وقصد الترفيه عن الناس ولست أنا أول من فكر في هذا الموضوع ليخرج للناس بنوع من الحل ولكن معظم هذه الوسائل والآليات والمسارح والمهرجانات وما يتبعها من أدوات قد وظفت هي أيضا للسوق ودخلت في عالم المزايدات والمتاجرات وبعد أن كانت وسائل للهو والترفيه صارت بخلاف ذلك مدعاة للسأم فما العمل إذا؟ هل لا بد من الاستسلام لليأس والفشل أم أنه لا بد من تذكر قول المسعدي المفكرالتونسي والعمل به : لا,لا, للفشل (ما دام الجد, مادام الجهد, أنا الإنسان , وشرف الإنسان في المحاولة)

أجل لا سبيل لليأس إلى نفوسنا ولا بد من البحث عما يسعدنا.

أليس المخ هو أصل كل أحاسيسنا وسلوكنا كما يقول العلماء؟ فلماذا إذا لا نمسك بهذا المخ ونتدبر معه أمرنا ؟ أليست عناية ما بهذا المخ من حيث هو كائن حي وعناية ما بهذا المخ من حيث هو في علاقة ماسة ودائمة بالمحيط الطبيعي والاجتماعي والثقافي الذي هو فيه يمكن أن تساعدنا على إيجاد الحل الذي نرتضيه ؟ كيف ذلك ؟

لا أحد ينكر أن كل المؤسسات التعليمية والتثقيفية والاقتصادية والاجتماعية بكل أشكالها وألوانها تعمل في هذا الاتجاه أيضا ولكن بدون تركيز مقصود علي المخ هذا باعتباره العضو المهم في الإنسان والذي هو المسؤول الأول والأخير على جميع تصرفاته و سلوكياته وما يلقاه في هذه الحياة من خير أو شر وما يتحقق له من سعادة أو شقاء ؟ وإنما هي (هذه المؤسسات) تعمل على تعليمه و تثقيفه والأخذ بيده ومساعدته في السراء والضراء قصد تهذيبه والارتقاء به وبإنسانيته في مختلف أبعادها دون استهداف خاص لهذا العضو المتميز فيه .

لكن المخ بما هو العضو الهام في جميع هذه العمليات ومصدر نشاطها أو خمولها في حاجة منا الى عناية خاصة لتطويره أكثر ما يمكن من التطوير لأن في تطويره هو تطويرا لكل هذه العمليات و المؤسسات الى أفضل ما يمكن من المستويات ونحن في هذه العناية المركزة علي هذا العضو سنوظف العلم مع الفلسفة في عملية إجرائية نتوقع لها كل نجاح .

بماذا نحن نفكر ؟ وكيف نفكر ؟ تلك هي المسألة ؟

لا شك أن المخ هذا هو الذي نفكر به أما الكيفية التي بها نفكر هي ما يعرف لدى الجميع بالعقلية السائدة التي اكتسبناها من المحيط . فتفسير علمي للمخ من حيث هو عضو ووظيفة في نفس الوقت يساعد الفلسفة على فهم العقلية من حيث مأتاها ومنتهاها بالتعرف الجيد على هذا المحيط وبالتالي نجد أنفسنا في حالة تعاون مثمر وفعال في ما بين العلم والفلسفة وفي هذا ما يؤكد بالفعل قيمة الفلسفة في بعدها العملي كما تظهر أيضا قيمتها في علاقتها ب «اليومي» .

لكن هذا العضو في ما يبدو ليس بإمكانه على الإطلاق أن يقوم بوظيفته تلك إلا في ظروف معينة يحددها العالم الخارجي المتفاعل معه على الدوام و المتبادل معه التأثير إيجابا وسلبا وهكذا تكون «العقلية» الناتجة عنهما هي في الحقيقة ابنة بيئتها، وبالتالي فنوعية الظروف المعيشية بكل أبعادها هي التي نصنع نوعية العقليات وتوجه المخ في نوعية ما من التفكير وإلا لما اختلفت عقلية العربي مثلا عن عقلية الياباني وعقلية الأوروبي عن عقلية الآسيوي أو الأمريكي ولما وجدنا أنفسنا أمام تنوع غريب من العقليات ؟

«المخ والمخيخ والنخاع الشوكى»

ذلك ما يسمى ب»الجملة العصبية»أو الجهاز العصبي وذلك هو المسؤول عن كل تحركاتنا وتصرفاتنا و الذي يقوم بمهمة التفكير و التدبير التي نعيش بها بدليل أن أي عطب أو خلل يصيبه يتسبب لصاحبه في اضطرابات في السلوك وفي الشخصية بكاملها تختلف في أعراضها ومظاهرها باختلاف نوعية ذلك الخلل مثل ما يعرف لدى العلماء ب»الذهان» أو «العصاب» ، والخوف و الاكتئاب والانطواء على النفس والاستسلام لليأس وغيرها من الاضطرابات.

لكن هذا «العضو-الجهاز» يبقي عاطلا هامدا لا حراك به ما لم تشارك في نهضته وحركيته الظروف الخارجية بكل عناصرها المناخية والاجتماعية والسياسية وغيرها...

النطق والكلام وكل ما يفكر فيه الإنسان هو من صنع هذا اللقاح الذي يتم بين الداخلي والخارجي أي بين هذا العضو «الحي» والمحيط البيو- ثقافي الذي هو فيه. إن كل ما نعرفه أو نفكر فيه وما نعيه أو (لا نعيه) هو مكتسب ناتج عن هذا اللقاح الطبيعي ومتواتر عنه على مر الزمن وان ما نكتسبه هو ما نورثه إلى من يأتي بعدنا وإذا ما حدثت تغيرات في الظروف حدثت معها تغيرات في الوظيفة وفي المكتسبات وهكذا يكون التطور وهكذا هي مسيرة الإنسان منذ أن ظهر على وجه البسيطة حتى الآن.

فإذا شئنا لهذا الإنسان أن يعيش مرتاح البال ومتفائلا بالمآل عملنا جميعا على تغيير ظروفه دائما إلى الأحسن وتغيير طرق عيشه وأساليب تربيته وتنشئته بحيث يأخذ الحياة منذ الصغر كما جاءته على أنها كذلك لا محالة وأنه قدرنا أن نعيش على سطح هذه الأرض وأن نتعامل مع ما فيها ومن فيها بكل رضي وثقة في النفس وبكل ما بجب أن يكون لنا من الاستعداد للمواجهة كلما اقتضى الأمر. أن موقفنا من الحياة والأحياء هو وحده الذي يساعدنا على الاستمرار فيها والفرح بها أو بالعكس من ذلك كرهها والتنكر لها وربما أيضا التفكير في مغادرتها والتفريط فيها بأي شكل من الأشكال. يقول تشلر أحد المفكرين الألمان «الهم لا شئ وإنما يصير شيئا إذا فكرنا فيه» لكن هل بإمكاننا أن لا نفكر ، ليس بإمكاننا ذلك أبدا إلا إذا كنا بشرا غير أسوياء لان الإنسان «حيوان ناطق»كما يقول أرسطو اي مفكر ولكن يمكن أن نوجه تفكيرنا هذا فيما أن يجب أن نفكر فيه وفي كيفية التفكير فيه وهذه هي المسألة التي دعت أرسطو لان يضع علم المنطق في كتاب سماه L'ORGANON «» أي الآلة وقصد به العلم الذي يعصم الإنسان من الوقوع في الخطأ وهو علم لا

يزال نافعا ومعمولا به إلى حد الآن وذلك في مستوى التفكير العام أما حينما يتعلق الأمر بالعلوم الخاصة فيكاد يكون الآن لكل علم منطقة خصوصا منذ أن ظهرت هذه الآلات المتطورة التي ساعدت على تطوير لتقنيات البحث في جميع هذه العلوم وبالتالي فإننا مطالبون اليوم أكثر من أي وقت مضى أن نراجع أنفسنا ونراجع عقليتنا ونتفحص جيدا أدوات بحثنا ونعمل على تطويرها بقدر ما نستطيع وهذا هو موضوع «التربية الفكرية الجديدة أو التربية الفلسفية» التي نحن في حاجة إليها هذه الأيام للتحرر من الضغوط النفسية التي نصاب بها أو مشاعر الإحباط التي لا تنفك تراودنا كلما تأملنا في ما يجرى في العالم من حولنا.

الحب أساس الحياة الإنسانية

أساس هذه « الفلسفة التربوية» هو تعويد أجيالنا الحالية و القادمة على حب الحياة والتحلي بالصبر والتشبع دائما بالأمل الكبير في أن يكون المستقبل أفضل ولا يمكن أن يتحقق لنا ذلك إلا بحبنا بعضنا لبعض لأنه بذلك وحده يمكن أن نتغلب على جميع المشاكل و الصعوبات وانه بذلك وحده يمكننا أن نفكر في الحياة وفي المستقبل بطريقة أفضل ، بطريقة تجعلنا ننوي خيرا ونلقى دائما خيرا لان حبك للناس يجعل الناس يحبونك وحب الناس إليك يجعلك تحب نفسك وإذا ما رضيت يوما عن نفسك وأحببتها بحق فقد صنعت الفرح لك ولغيرك.

عندئذ فقط يكون تفكيرنا قويا وشخصنا كالحصن المنيعا ضد كل الضغوطات.

فكر في الفرح تفرح وفكر في الألم تتألم، وكما تكون يولى عليك.

ومن هنا نستنتج أمرا مهما ومتأكدا وهو أن الذين يكرهون الناس ويظلمونهم أو يقهرونهم أو يمثلون بهم إذا وقعوا في أيديهم أو حتى يهينونهم أو يعتدون عليهم بأي شكل من أشكال الظلم والاعتداء هم أناس بالفعل يكرهون أنفسهم قبل أن يكرهوا أحدا وهم قد مروا بأزمات كره الغير لهم واعتدائه عليهم ولهذا السبب ذاته نجد في الحرب المرتزقة هم دائما في طليعة الجيش أي في المقدمة لأنهم في الغالب»لقطاء» لا أصل لهم ولا موطن أو مرجع، يكرهون غيرهم كرها قويا كما هم يكرهون أنفسهم لذلك فأنهم سيضربون بشدة كل من يلاقونهم كان «فريدريك نيتشة» يعاني الأمرين من أمه عندما كان صغيرا كما ذكر هو نفسه في بعض اعترافاته فنشأ يكره الناس عندما صار كبيرا ويكره جميع أعرافهم وتقاليدهم وحتى دياناتهم. أما هتلر فقد كان في طفولته من أبناء الشوارع يتسكع في أحياء وساحات مدن النمسا قبل أن تبلغه الدعوة إلى الخدمة العسكرية ببلاده ألمانيا التي أصبح فيها لاحقا شخصا عنيدا مجبرا يكره الناس جميعا أيضا ولا ينزع إلا للسيطرة عليهم أو احتقاره لهم أما بوش الابن فلعله كان يحب القردة التي في مزرعته بتكساس أكثر مما كان يحب نفسه أو يحب الناس لأنه كان أيضا قد منى بفشل ذريع في طفولته أراد أن يعوض عنه في كبره بفرض إرادته على جميع الناس في بلده وخارجها ، وهكذا فإننا إذا أردنا خيرا بهذه الإنسانية وعزمنا علي إنقاذها من الهوة التي ستتردى فيها ، هوة الحقد والكراهية والمظالم المتعاقبة لا بد من إعادة النظر في طريقة تربية أبنائها على «الحب» حب أنفسهم وحبهم لغيرهم وحب الغير لهم حتى يمكنهم أن يستديموا الفرح بينهم.

كيف يمكن تحقيق ذلك؟ يمكن تحقيق ذلك مبدئيا بتنمية خاصة للمخ العضو الجهاز الذي نعتمد عليه في جميع تصرفاتنا.

نحن نعلم أن كل عضو في الإنسان كما هو في غيره من الكائنات الحية الأخرى وكما هو مؤكد لدى جميع العلماء اليوم، يقوى بالاستعمال ويضعف أو يزول بالإهمال فلا بد إذا أن يخضع هذا العضو الجهاز إلى تدريبات خاصة جدا منذ الصغر تساعده على النمو السريع المتكامل في ما بينه وبين أعضاء الجسم الباقية وذلك بكل ما يتوفر لنا من معرفة وجهد .

ألم يتدخل الإنسان في إحداث التغيرات النوعية في كثير من الخضر والغلال والدواجن وغيرها من الحيوانات الأخرى ونجح في ذلك أيما نجاح؟ فلم لا يتدخل الآن في نوعه فيوجهه في ما ينفعه ويسره ويصل به الي شاطئ الآمان؟ هل سننتظر ذلك من الاستنساخ؟ أبدا لا يمكن أن نحصل على ما نريده من الاستنساخ لان الاستنساخ يكرر الموجود ولا يغير من نوعه ونحن نريد تجاوز الموجود بالتغيير في نوعه وحفظ البقاء للأفضل والأصلح منه مادة ومعنى .

هذا الأمر في غاية الأهمية وفي غاية الخطورة أيضا انه في غاية الأهمية إذا حسنت النوايا وقمنا به فقط من أجل أهداف إنسانية وهو في غاية الخطورة إذا ساءت النوايا وقمنا به فقط من أجل تحقيق أغراض تجارية لان «السوق» اليوم لا يرحم، إنها كالبحر الجائع الذي يريد أن يبتلع في جوفه كل المنتوجات البشرية، إنها سوق العولمة والكونية ، سوق الجبروت والهمجية.

انه كما يحتاج هذا العضو إلى تغذية علمية خاصة جدا ومدروسة جدا كي يستطيع القيام بوظيفته أحسن قيام وينهض بأعباء مسؤوليته على أحسن ما يرام ليتحقق منه الهدف المنشود، يحتاج في المقابل وبالتوازي المحيط الخارجي أو (العقلية) إلى تحوير متكافئ بوسائل علمية خاصة جدا ومدروسة جدا حتى تتلائم وتتناغم مع الذي هو مطلوب منهما معا الارتقاء بالعقل والعقلية في طريق حب الذات وحب الآخرين معا وحب الآخرين هو من حب الإنسان لذاته وتتم المصالحة الجريئة بين الذات والموضوع الذين هما لو تأملنا قليلا وجهان لشئ واحد هو «الإنسان» الذي لم نعد نريده» شيئا «بقدر ما نريده أنسانا متميزا عن كل الكائنات والأشياء ، أنسانا جديدا مختلفا عن كل إنسان وجد حتى الآن وهذا ليس بحلم يصعب تحقيقه على أرض الواقع ، يكفي فقط أن تتعلق همتنا به حتى يصير واقعا ملموسا وفي أقرب الأوقات وذلك بتعاون المؤسسات المسؤولة بأصحاب الاختصاص الأكفاء وبالفلاسفة والعلماء...

إن إحداث التغيرات النوعية في الكائنات الحية- بما فيها البشرية – لهو اليوم أسهل وأسرع مما كنا نتصور كونه في الماضي لان هذه التغيرات في الماضي كانت تحصل ببطئ شديد وعبر تاريخ طويل لأنها كانت فقط رهينة بحركة الطبيعة وفعل الزمان وحدهما وما يتوفران عليه من عاملي الصراع من أجل البقاء والانتقاء. أما اليوم فقد صار بإمكان هذا الإنسان ذاته التدخل في عملية التغيير هذه وتسريعها والتدخل حتى في عاملي الصراع والانتقاء وذلك بفضل ما صار له من علم ودراية بحركة الطبيعة هذه وبفضل ما صار له من قدرة على مساعدتها وتوجيهها أو حتى الدفع بها خارج الزمان والمكان . ألم يعد الإنسان اليوم بإمكانه أن يتمرد على قانون الجاذبية ويخترق الأجواء؟ فلم لا يتمرد الآن على قانون النسبية ويتدخل في تأهيل الإنسان إلى الإنسان الأرقى والأفضل الذي تطمح الى تحقيقه كل البشرية؟ حتى «الانتقاء الطبيعي» لم يعد يعمل وحده وإلا لما رأينا بلدا كتونس مثلا الذي كان فيه حوالي ثلاثة ملايين نسمة فقط طيلة القرون الماضية قد صار يضم أكثر من اثني عشر مليون الآن في ظرف عقدين أو ثلاثة من الزمان فقط. انه لم يحدث ذلك لولا تدخل «اليد العاملة» التونسية الحديثة من السياسيين والأطباء والعلماء والمثقفين وغيرهم من الصناع والمبدعين...

أليس الوجود سابقا على الماهية كما ترون وكما كان يقول جان بول سارتر ؟ وانه لوجود متغير على الدوام وليس بالتالي لما هيتة من حدود لا في الزمان ولا في المكان ؟ وما دام سر هذا الوجود في التغير المستمر وعدم الثبات لماذا لا تكون لنا فلسفة جديدة مجهزة بالعلم لنرقى بالإنسان ؟ أليس هو ذا اللقاء الذي كان يطمح إليه كل منهما حتى لا يجن العلم كما قد يحدث له أحيانا في العالم الغربي وحتى لا تضيع الفلسفة كما قد يحدث لها أحيانا في العالم الشرقي؟

رسالات السماء لم تنقطع عن البشر

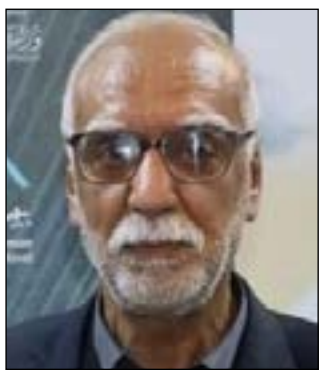

الناصر التومي - كاتب

عملت حضارات ما بين النهرين، والمصرية والفارسية، والهندية والصينية، واليونانية، على استيعاب ما جاء بالرسالات السماوية بحكم تتالي الرسل والأنبياء من آدم إلى حين الرسالة الابراهمية التي كانت الزاد والمعين لأغلب أحداث وقصص وأساطير هذه الحضارات بحكم قربها من بعضها، وتلاقحها سواء بالتجارة، أو بالحروب، أو انتشار اليهود أصحاب التوراة في كامل الأصقاع المذكورة سواء اثناء تهجيرهم من قبل البابليين أو الرومان، أو تيههم في كامل المعمورة.

وقد حاولنا في أول هذا الكتاب تبيان تأثر شعوب الحضارات المذكورة بالرسالات السماوية سواء ما راج بين الشعوب من قصص وأحداث شفوية، نزلت صحفا و دليلنا، مرجعنا الرئيسي بوصفنا مسلمين هو قرآننا الكريم، وتمت الإشارة إليها في آيات عديدة مثل قوله سبحانه:

ـ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى(طه الآية 133).

ـ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (الحديد الآية 25).

ـ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (البقرة الآية 213).

ـ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ(غافر الآية78).

وفي السنة المطهرة عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: قلت يا رسول الله كم المرسلون قال ثلاثمائة وبضعة عشر، جما غفيرا، وفي رواية أبي أمامة قال أبو ذر: قلت يا رسول الله كم وفاء عدد الأنبياء؟ قال مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا والرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جما غفيرا).

وقد أوردنا قبل هذا الآيات القرآنية التي ذكرت الصحف التي أنزلها الله على رسله.

ولا شك أن صحفا وكتبا عديدة أنزلها الله على رسله وأنبيائه، لم يحفظها الله كما حفظ القرآن لحكمة، وربما جاء فيها من التعاليم والأحداث والقصص والمواعظ شبيهة بالكتب التي تعرفنا عليها، ثم طال على الأقوام الأمد فقست قلوبهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فأهملوها لكن الرواة والشعراء، والمسرحيون، والكهان والسحرة اقتبسوا منها حكايات عجيبة وغريبة حول الآلهة، وأنصاف الآلهة، ما قد يقنعون به العامة الجاهلة لمآرب دنيوية بحتة.

فالرسالات السماوية نزلت بدين واحد ألا وهو الإسلام: « إن الدين عند الله الإسلام». وبنظرة ما جاء به قرآننا على لسان رسله وأنبيائه نقف على هذه الحقيقة وهي دليل على أن دين الله لا يتغير ولا يتحول:

قال الله: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (آل عمران الآية 19).

ـ قال الله على لسان نوح:فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ(يونس الآية 72).

ـ قال الله:ـمَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ ـ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(آل عمران الآية 67).

ـ قال الله: وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (البقرة الآية 127).

ـ قال الله:ووَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ(البقرة الآية 132).

ـ قال الله: وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ(الحج الآية 78).

ـ قال الله:قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (30) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (31) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (32) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (33) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (34) فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (35) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (الذاريات).

ـ قال الله: أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (البقرة الآية 133).

ـ قال يوسف:رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (يوسف الآية 101).

ـ قال الله:وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (يونس الآية 84).

ـ قال سحرة فرعون:وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ(الأعراف الآية 126).

ـ قال الله:وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ(يونس الآية 90).

ـ قال الله:وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ(المائدة 111).

ويتوضح من خلال الآيات المشار إليها أعلاه الواردة بالقرآن الكريم أن مصطلح الإسلام هو المهيمن على صياغته ونسيجه اللغويين، سواء كان من عند الله، أو كان من قبل الرسل الملائكة أو الرسل البشر، أي أن كل الرسالات نزلت من نور واحد لا تغيير فيه ولا زيادة أو نقصان،وأن هذا الدين من بداية بعث آدم لا يتغير جوهره الذي يدعو إلى عبادة الله وحده واتخاذ الفضائل مسلكا ومنهجا، لذلك فالشريعة واحدة، يحرم فيها الشرك بالله، وفعل الشر، و الزواج بالمحارم، واحترام الآباء وغيرها من العبادات ومكارم الأخلاق، ولا تغيير في الشريعة الإلهية لخلقه من يوم بعث آدم: وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴿ الأنعام الآية 34).

لذلك فإن أية حقبة من حقب البشرية لم تخل من هذه القيم التي جاء بها الرسل على مر الأزمان وهذا الحديث شاهد على ذلك فيما يتعلق بالنكاح والسفاح من آدم إلى البعثة المحمدية:

ـ روى ابن عدي قال: حدثنا أحمد بن حفص، حدثنا محمد بن أبي عمرو العدني المكي، حدثنا محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين قال: أشهد على أبي، حدثني عن أبيه عن جده، عن علي بن أبي طالب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح، من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي، ولم يصبني من سفاح الجاهلية شيء.

وثبت في صحيح البخاري من حديث عمرو بن أبي عمرو عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:بعثت من خير قرون بني آدم قرنا فقرنا حتى بعثت من القرن الذي كنت فيه .

ـ روى الحافظ أبو القاسم ابن عساكر من طريق أبي الحسن ابن أبي الحديد، أخبرنا محمد بن أبي نصر، أنا عبد السلام بن محمد بن أحمد القرشي، حدثنا أبو حصين محمد بن إسماعيل بن محمد التميمي، حدثنا محمد بن عبد الله الزاهد الخراساني، حدثني إسحاق بن إبراهيم بن سنان، حدثنا سلام بن سليمان أبو العباس المكفوف المدائني، حدثنا ورقاء بن عمر، عن ابن أبي نجيح، عن عطاء ومجاهد، عن ابن عباس قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: فداك أبي وأمي أين كنت وآدم في الجنة؟قال: فتبسم حتى بدت نواجذه، ثم قال: كنت في صلبه، وركب بي السفينة في صلب أبي نوح، وقذف بي في صلب أبي إبراهيم، لم يلتق أبواي على سفاح قط، لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الحسيبة إلى الأرحام الطاهرة، صفتي مهدي لا ينشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما.وقد أخذ الله بالنبوة ميثاقي، وبالإسلام عهدي، ونشر في التوراة والإنجيل ذكري، وبين كل نبي صفتي، تشرق الأرض بنوري، والغمام بوجهي، وعلمني كتابه، وزادني شرفا في سمائه، وشق لي اسما من أسمائه، فذو العرش محمود، وأنا محمد، وأحمد، ووعدني أن يحبوني بالحوض والكوثر، وأن يجعلني أول شافع وأول مشفع، ثم أخرجني من خير قرن لأمتي، وهم الحمادون يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر.

وهذه الأحاديث هي دليل على أن الشريعة الإلهية من بداية خلق آدم ماكانت تسمح بالسفاح بل تحض على النكاح، وأن ما راج من عدم احترام لهذه الشريعة وما زاغت بعض الأقوام وعبدت ما دون الله وسمحت بزواج المحارم مثلما جاء في عديد الأساطير لبلاد ما بين النهرين ومصر واليونان، لم يكن ذلك إلا ببعدها عن تعاليم الرسالات السماوية ومن أجل ذلك كان الله يرسل الأنبياء والرسل للتذكير بشريعته.

الآيات القرآنية في الرسل والأنبياء الرسل:

ـ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (فاطر الآية 24)

ـ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ(غافر 78).

ـ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (163) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (164)(النساء).

ـ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (النحل الآية 36).

أرسل الله تعالى رسلاً إلى كل أمةٍ من الأمم ، وقد ذكر الله تعالى أنهم متتابعون ، الرسول يتبعه الرسول، قال عز وجل: ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ (المؤمنون الآية 44)، وقال تعالى: إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ (فاطر الآية 24).

أسماء الرسل في القرآن

ـ وهذه تسمية الأنبياء الذين نُصَّ على أسمائهم في القرآن حسب توالي نزولهم وهم: آدم، وإدريس، ونوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف ، وأيوب، وشعيب، وموسى، وهارون، ويونس، وداود، وسليمان، وإلياس، واليَسَع، وزكريا، ويحيى، وعيسى عليهم الصلاة والسلام ، وكذا ذو الكفل عند كثير من المفسرين ، وسيدهم محمد صلى الله وعليه وسلم.

وقوله : (وَرُسُلا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ) أي : خلقاً آخرين لم يذكروا في القرآن.

أحاديث الرسول عن الرسل

ولعل أغلب المحدثين وسموا أحاديث عدد الأنبياء والرسل بأنها ضعيفة، لكن هناك من صحح بعضها مثل الحديث الذي رواه الإمام أحمد في المسند عن أبي ذر قلت يا رسول الله كم المرسلون؟ قال (ثلاثمائة وبضع عشر جما غفيرا) وفي رواية أن أبي أمامة

أساطير

قال أبو ذر: قلت يا رسول الله كم وفاء عدة الأنبياء؟ قال مائة ألف واربعة وعشرون ألفا، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جما غفيرا) ونحوه في معجم الطبراني.

وقد علق الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة على هذا الحديث تعليقا مستفيضا، وناقش أسانيده وماله من شواهد ثم قال في خلاصة تعليقه: وجملة القول: إن عدد الرسل المذكورين في حديث الترجمة صحيح لذاته، وأن عدد الأنبياء المذكورين في أحد طرقه، وفي حديث أبي ذر من ثلاث طرق فهو صحيح لغيره، ولعله لذلك لما ذكره ابن كثير في (تاريخه)(1/97) من رواية ابن حبان في صحيحه سكت عنه ولم يتعقبه بشيء، فدل على ثبوته عنده، وكذلك فعل الحافظ ابن حجر في (الفتح)(6/257) والعيني في (العمدة)(7/307) وغيرهم وقال المحقق الآلوسي في (تفسيره) (5/449) وزعم ابن الجوزي أنه موضوع وليس كذلك، نعم قيل في سنده ضعف جبر بالمتابعة وسبقه إلى ذلك والرد على ابن الجوزي الحافظ ابن حجر في (تخريج الكشاف)(4/114) وهو الذي لا يسع الباحث المحقق غيره كما تراه مبينا في تخريجنا هنا.

ـ عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بعث الله ثمانية ألاف نبي أربعة ألاف إلى بني إسرائيل، وأربعة ألاف إلى سائر الناس(رواه أبو يعلى في مسنده(7/160) ضعفه المحدثون.

عن أبي الوداك قال: قال لي أبو سعيد، هل يقر الخوارج بالدجال؟ فقلتلا فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم(إني خاتم ألف نبي أو أكثر ما بعث نبي يتبع إلا وقد حذر أمته الدجال. رواه أحمد(18/ 275).

وهنا هل نصدق مائة وأربعة وعشرين ألف نبي، أو ثمانية ألاف أو ألف نبي وخاصة أن أغلب الأحاديث مرماة بالضعف، لكننا قد نستنتج منها أن الله لم يترك خلقه دون هداية، فكان يبعث في كل أمة نبيا ويتبعه بعد زمن بآخر حتى يكون حجة عليهم إذا حاسبهم يوم الدين. ولا شك أن ما قبل ابراهيم بعث الله بأنبياء كثر مثلإدريس، وهود، وصالح،ونوح وهؤلاء ما ذكرهم الله، وهناك من لم يذكرهم كماجاء في سورة النساء: وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ.

فإذا اعتبرنا أن من تاريخ بعث آدم عشرة آلاف سنة وقسمناها على ألف نبي فقط لوجدنا أن كل ألف سنة يبعث اللهمائة نبي وهذا كثير، ولو كانت الكتابة متوفرة قبل البعثة الإبراهيمية لوصلتنا أخبارهم، كما وصلتنا أخبار رسل وأنبياء بعد البعثة الإبراهيمية وسجلت ضمن العهدين القديم والجديد والقرآن، فهؤلاء الأنبياء والرسل إن لم يذكرهم الله في كتبه المقدسة فذلك لأنهم لم يأتوا بشريعة جديدة بل كانوا يدعون إلى شريعة ما قبلهم من الرسل، فالأنبياء والرسل الذين جاءوا قبل نوح كانوا على شريعة آدم، والذين نزلوا قبل ابراهيم كانوا على شريعة نوح، وكل أنبياء بني اسرائيل جاءوا للتذكير بشريعة موسى وحتى عيسى جاء ليصحح شريعة موسى.

ولعل الرسل والأنبياء الذين جاءوا قبل ابراهيم والذين نزلت معهم جل قصص بداية الخلق ونشروها شفاهيا ولم تكن هناك كتابة لا بواسطة الصور والكتابة المسمارية، فتبعثرت هذه الأحداث بين القبائل والشعوب وسحبت من المعتقد الإلهي التوحيدي، ولما اخترعت بلاد ما بين النهرين وبعدها مصر الكتابة التصويرية والمسمارية كان قد غرقت البشرية من جديد في الجهل والضلالة وذابت الرسالات الإلهية لتحل محلها الوثنيات و الأساطير، لذلك اعتبر المؤرخون أن التوراة ورثت تعاليمها وقصصها من الأساطير والوثنيات لكن الحقيقة أن العكس هو الصحيح فلما نزلت التوراة صححت العقيدة والوقائع ليعود كل إلى أصله وذكرت بأن كل الأحداث القديمة هي حقيقة إلهية كونية وليست من خلق الكهنة بل هؤلاء هم الذين اقتبسوها من العالم الشفوي وأدرجوها في نسيج أساطيرهم.

إذا فالحقبة المختلف فيها بين العلماء والمؤرخين هي بين آدم وما قبل ابراهيم أي قبل بداية الكتابة، وهذه الحقبة هي مربط الفرس في بحثنا، لأن أغلب الأحداث القصص الواردة بالجزء الأول وكذلك العبادات بالجزء الثاني والتي جاءت بالعهد القديم وزكاها القرآن قد وقعت قبل نزول التوراة مما جعل العديد ومن العلماء والمؤرخين يتهمون كتاب التوراة بأنهم اقتبسوها من الديانات الوثنية التي وجدت قبل نزول التوراة، فقد غاب عنهم أو تعمدوا تجاهل حقبة ما بين آدم وإبراهيم التي أرسل فيها الله رسلا وأنبياء كثرا، ذكر بعضهم العهدين القديم والجديد والقرآن ولم يذكر البعض الآخر، وإذا اعتبرنا أن الرسالات السماوية كانت تهدف لدين واحد فلا شك أن هؤلاء الرسل والأنبياء قد بثوا ضمن التعاليم الإلهية هذه القصص و العبادات وتلقتها الأقوام وانتشرت في الآفاق وتسربت في أساطير الشعوب دون أن تسجل سواء في رقع أو على جدر مثلما هو الشأن مع أساطير بلاد بين الرافدين والمصرية، وبقيت تنتقل من جيل إلى جيل ومن حقبة إلى أخرى بواسطة الحكي الشفوي، وإلا كيف نفسر ما جاء بالتوراة والإنجيل ومن بعدهما القرآن أن الله قص ما حدث في خلق السموات والأرض، وخلق آدم وعصيان إبليس لما طلب منه الله السجود لآدم وبعث حواء، وقتل قابيل لهابيل، وصعود إدريس النبي إلى السماء وطوفان نوح، وقصص عاد وثمود، وحبسها على رسله وأنبيائه الذين بعثوا قبل بعث ابراهيم، بل إن الله كما بيّن الحلال والحرام لشريعة موسى وعيسى ورسولنا الأكرم أورد قصص الخليقة من بدء خلق السماوات والأرض قد فعل ذلك مع من قبلهم، لذلك انتشرت هذه القصص والعبادات وانسلخت من الرسالاتا لسماوية كما بينا سابقا بطول الزمن، والنسيان، وتدخل إبليس، كما جاء في قرآننا الكريم، وأدرجت ضمن ديانات وثنية، لأن الكهنة الكذبة هم من خلقوا هذه الديانات باعتماد المعلومات الموروثة لترسيخ معتقداتهم وإثرائها من جهة واستغلالها لإقناع أقوامهم. ولعل هذه الفجوة في التاريخ غير المدوّن قبل الكتابة هي التي أربكت العلماء والمؤرخين الملحدين خاصة الذين لا يؤمنون بالرسالات السماوية، وجعلتهم يعتبرون أنها اقتبست من الديانات الوثنية لعدم ثبوت الدليل المكتوب، بينما الدليل متوفر في الكتب المقدسة، والمتمثلة في بعث رسل بداية من آدم يحملون هذه المعلومات ويبثونها ضمن تذكيرهم بوجوب عبادة الله واتباع سنته التي لا تحويل لها.

ـ الدليل الأول لا يريد العلماء والمؤرخون وخاصة الملحدون منهم الإيمان به وهو أن الرسالات السماوية حق وواقع يعيشه أكثر من مليار ونصف مسلم، وثلاث مليارات مسيحي ويهودي.

الدليل الثاني أن موزعة في أغلب أساطير الشعوب كما بينا، ولم تكن حكرا على شعب دون آخر.

الدليل الثالث أن عديد الأساطير تشير إلى حقيقة النقل من الرسالات السماوية حاولنا ذكرها بمصادرها، فالله ضمن شريعته حرم نكاح المحارم، وشريعته لا تتغير ولا تتحول من رسالة إلى أخرى.

ـ فلماذا إذا يستنكر أوديب الملك في الأساطير اليونانية ويستفظع فعلته بالزواج بأمه، وتعاقبه الآلهة ومدينته، فمن الذي سرّب فكرة هذا التحريم إلى اليونانيين القدماء إن كانت أساطير آلهتهم زاخرة بزواج المحارم مثل الأساطير المصرية وبلاد ما بين الرافدين .ولماذا إسكيمو « قرين لاند» تجرم الاقتران بالمحارم وقد هاجروا قبل البعثة الإبراهيمية أي قبل 10000 سنة وانقطعوا عن العالم.

الدليل الصادم لدى قبائل أمريكا

وأردنا كدليل على أقوالنا أن نستشهد فقط بأساطير الهنود الحمر الذين انقطعوا عن بقية القارات قبل عشرة آلاف سنة ولم يسمعوا حتى بالرسالة الابراهيمية فما بالك بالرسالة الموسوية، والذين حملوا معهم بذورا من معتقدات أصلها نزل مع آدم والأنبياء الذين بعثوا بعده أي قبل ابراهيم، وهي الحقبة التي يتجاهلها المؤرخون وهي التي كانت أشاعت هذه القصص التي تلقفتها أساطير الشعوب قبل العهد القديم زمن هيمنة نقل المعلومة شفويا دون الكتابة الأوريغلوفية ولا المسمارية.

بداية خلق الأرض عند شعوب المايا(1)

«في البداية كان هناك بحر مظلم و هاديء، في هذا البحر كانت الآلهة موجودة، ثم تشكلت الجبال و الوديان و السهول و انقسمت المياه، ثم خلقوا الحيوانات، طالما أن الحيوانات لم تكن تستطيع الكلام و بالتالي لا تستطيع أن تعبد و تحترم خالقيها ولا تستطيع أن تطلب من خالقيها أن يتركوها على قيد الحياة قررت آلهة الخلق صنع البشر.

وقد جاء في العهد القديم بعد هجرة أجداد شعوب المايا بآلاف السنين وانقطعوا عن العالم: في البدء خلق الله السموات والأرض، وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة، وروح الله يرف على وجه المياه، وقال الله ليكن نور فكان نور(سفر التكوين الإصحاح الأول)

أسطورة الشمال الغربي الأمريكي في رفع السماء عن الأرض(2)

تروي أساطير قبائل « سنوهومش « أن الإله الخالق لم يكن راضيا عن أعمال « دوهك وبوج « إذ لم يتكلم البشر لغة واحدة وعم سوء التفاهم واكتشف أنهم يضربون رؤوسهم في السماء التي كانت منخفضة، وتسلق الرجال الأشجار وذهبوا إلى السماء مما دفع أحد الحكماء إلى نصحهم بالاجتماع سوية لرفع السماء وقرروا جميعا أن يصرخوا صرخة واحدة « ياهو»بوصفها علامة لرفع أعمدة السماء، وتمكنوا من القيام بهذا العمل، ولكن البعض لم يعرف أن السماء أصبحت مرتفعة فانشغلوا بمطاردة الصيد وتعلقوا بعدها في السماء وأصبحوا نجوم الدب الأكبر.

العهد القديم: ، وكان مساء وكان صباح يوما واحدا، وقال الله ليكن جلد في وسط المياه، وليكن فاصلا بين مياه ومياه، فعمل الله الجلد وفصل بين المياه التي تحت الجلد، والمياه التي فوق الجلد. وكان كذلك، ودعا الله الجلد سماء، وكان مساء وكان صباح يوما ثانيا، وقال الله لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد، ولتظهر اليابسة،وكان كذلك(سفر التكوين الإصحاح الأول).

القرآن:ـ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (الأنبياء ـ الآية 30).

(3)خلق الإنسان من الأرض ونفخ الروح فيه لدى قبائل أمريكا الأوائل

تعتقد قبائل «الغونكوين« أن «كيجي مانتو» الروح العظمى خلق البشر من الأرض ونفخ فيها الروح، وتعتقد بعض القبائل ضمن أساطيرها أنه بعد خلق العالم تم صنع الرجال من الطين.

وجاء في العهد القديم:» وجبل الإله آدم ترابا من ألأرض، ونفخ في أنفه نسمة الحياة، فصار آدم نفسا حية»...(ـ سفر التكوين- الاصحاح الثاني).

وجاء في القرآن الكريم:فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (الحجر الآية29).

(4)وتروي أسطورة لشعب المايا أن الآلهة بعد خلق العالم قامت بصنع الرجال من الطين.

وقد جاء في العهد القديم:» وجبل الإله آدم ترابا من الأرض، ونفخ في أنفه نسمة الحياة، فصار آدم نفسا حية».....(ـ سفر التكوين- الاصحاح الثاني).

القرآن: إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (آل عمران الآية 59).

قصة آدم وحواء(5)

في قاموس أساطير العالم يشرح المؤلف»آرثر كورتل» كيف وجدت قصة آدم وحواء في هذه القبائل البدائية:

ـ وهناك اختلاف في وجهات النظر حول أصل هذا الموقف الغريب وهو موقف بدائي ومواز لقصة سقوط آدم وحواء، وتظهر أسطورة الخليقة واضحة عندهم وما يروونه في أساطيرهم يمكن أن تكون كلمات يهوذا في مخاطبته لحواء إذا يخاطبها في أساطيرهم:

« إنني سأكرر ألامك وولادتك وستلدين أولادك بألم وحزن وستكون رغبتك لزوجك الذي سيحكمك «

جاء في العهد القديم: وقال للمرأة: تكثيرا أكثر أتعاب حبلك، بالوجع تلدين أولادا. وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك.(سفر التكوين الإصحاح الثاني).

(6)كما أن الزنا محرم عندهم وجريمته القتل مثلما هو الشأن في الرسالات السماوية جميعا.

(7) يعتقد شعب «المايا» أن المحاربين وضحايا القرابين الانسانية والنساء اللائي يتوفين في الولادة يذهبون رأسا إلى الجنة، ولا يحتاجون إلى أي شيء إذ تلبى كل رغباتهم.

جاء في القرآن الكريم: وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ) (آل عمران:157)، ولهذا يطلق لفظ شهيد بشكل أساسيّ على من يموت في الحرب مع العدوّ.

وجاء في الحديث: عن جابر بن عتيك أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:الشهداء سبعة سوى القتل في سبيل الله: المطعون شهيد، والغريق شهيد، وصاحب ذات الجنب شهيد، والمبطون شهيد، والحريق شهيد والذي يموت تحت الهدم شهيد والمرأة تموت بجمع شهيدة.

شعب المايا يعتبرون المحاربين يدخلون الجنة وكذلك المرأة تموت أثناء الولادة، هل هذا الشعب قرأ القرآن حتى يعرف هذه الشريعة إنما هو دين الله من آدم واحد نزل مع رسل وأنبياء قبل البعثة الإبراهيمية وقد تغلغل في أساطير الشعوب.

ـ وقال في ذلك الله في القرآن الكريم : يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ

---

1) قاموس أساطير العالم ص195.
2) نفس المصدر ص 195.
3) المصدر نفسهص200.
4) المصدر نفسه ص207.
5) المصدر نفسه ص177.
6) المصدر نفسه ص 186.
7) المصدر نفسه ص 187.

مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(الزخرف الآية 71).

ـ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة كان حمله ووضعه عليه وسنه في ساعة كما يشتهي(رواه الترمذي).`

خلقت آلهة شعوب المايا رجالا مشابهين لها(8)

في البداية كان هناك بحر مظلم و هادئ، في هذا البحر كانت الآلهة موجودة، ثم تشكلت الجبال و الوديان و السهول و انقسمت المياه، ثم خلقت الحيوانات،وطالما ان الحيوانات لم تكن لا تستطيع أن تعبد و تحترم خالقيها و لا تستطيع أن تطلب من خالقيها ان يتركوها على قيد الحياة قررت آلهة الخلق صنع البشر، و لهذا الغرض قاموا بعدة تجارب في خلق البشر، صنعوه في المرة الأولى من الطينو لكنه كان رخوا و سائلا فأتلفوه، في المرة الثانية صنعوه من الخشب، عاش البشر المصنوعين من الخشب و استطاعوا التناسل و لكنهم كانوا بدون عقل أي أنهم لم يستطيعوا عبادة الألهة لذلك قررت الآلهة اتلافهم وأرسلوا عليهم الفيضان و قضوا عليهم، في المرة الثالثة صنع الألهة البشر من حبوب الفاصوليا و القصب و لكن هذا النوع من البشر لم يكن يستطيع الكلام أو التفكير و لذلك أتلفتهم الآلهة، في المرة الأخيرة صنع الآلهة أربعة رجال من الذرة، هؤلاء الرجال الأربعة كانوا مشابهين جدا للآلهة أي هم كانوا أذكياء مثلهم و كانوا على علم بكل شيء و يريدون أن يعلموا كل شيء، لذلك قامت الآلهة بتخفيض قواهم العقلية من أجل أن يكونوا أقل مكانة من الآلهة، خلال نوم الرجال الأربعة خلق الآلهة أربع نساء لهؤلاء الرجال و منهم جاءت القبائل كلها.

المراحل نفسها التي جاءت العهد القديم إلى أن خلق الله آدم.

في البدء خلق الله السموات والأرض، وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة، وروح الله يرف على وجه المياه، وقال الله ليكن نور فكان نور،. ورأى الله النور أنه حسن، وفصل الله بين النور والظلمة، ودعا الله النور نهارا والظلمة دعاها ليلا، وكان مساء وكان صباح يوما واحدا، وقال الله ليكن جلد في وسط المياه، وليكن فاصلا بين مياه ومياه، فعمل الله الجلد وفصل بين المياه التي تحت الجلد، والمياه التي فوق الجلد.وكان كذلك، ودعا الله الجلد سماء، وكان مساء وكان صباح يوما ثانيا، وقال الله لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد، ولتظهر اليابسة،وكان كذلك، ودعا الله اليابسة أرضا، ومجتمع المياه دعاه بحارا، ورأى الله ذلك أنه حسن، وقال الله لتنبت الأرض عشبا وبقلا يبزر بزرا وشجرا ذا ثمر يعمل ثمرا كجنسه بزره فيه على الأرض، وكان كذلك، فأخرجت الأرض عشبا وبقلا يبزر بزرا كجنسه، وشجرا يعمل ثمرا بزره فيه كجنسه، ورأى الله ذلك أنه حسن وحسن جدا.(سفر التكوين الإصحاح الأول).

وجاء أيضا:

وقال الله لتخرج الأرض ذوات أنفس حية كجنسها، بهائم ودبابات ووحوش أرض كأجناسها، وكان كذلك، فعمل الله وحوش الأرض كأجناسها والبهائم كأجناسها وجميع دبابات الأرض كأجناسها، ورأى الله ذلك أنه حسن وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض، فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه ذكرا وأنثى خلقهم.(سفر التكوين/ الإصحاح الأول).

وجاء في العهد القديم:، فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه ذكرا وأنثى خلقهم.(سفر التكوين/ الإصحاح الأول):

وجاء في السنة النبوية: روى ابن عاصم في السنة عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تقبحوا الوجوه فإن ابن آدم خلق على صورة الرحمن.

نلاحظ في معتقدات شعوب المايا علاوة على خلق البشر مشابهين جدا للآلهة، فقد كانت لهم معلومات مشوشة عن خلق البشر، فخلق الإنسان من طين، وأتلف بالفيضان أي الطوفان ويعلم الخلق الأول بكل شيء وهم شبيهون بآدم الذي علمه ربه كل الأسماء وبز الملائكة في ذلك، وخلقت النساء من الرجال في نومهم منهم مثل خلق حواء من آدم.

شعوب المايا تؤمن بأن النساء خلقن من الرجال(9)

تعتقد قبائل شعوب المايا أن الآلهة خلقت أربعة رجال وأثناء نومهم خلقت أربع نساء ومنهم جميعا انحدرت قبائل المايا.

جاء في العهد القديم:، فأوقع الرب الإله سباتا على آدم فنام، فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحما، وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم، فقال آدم: هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي. هذه تدعى امرأة لأنها من امرء أخذت، لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسدا واحدا، وكانا كلاهما عريانين، آدم وامرأته، وهما لا يخجلان.(سفر التكوين الإصحاح الأول)

وجاء في القرآن: قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا(النساء الآية 1).

وجاء في السنة المطهرة: روى البخاري ومسلم وغيرهما واللفظ للبخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ـ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، واستوصوا بالنساء خيرا فأنهن خلقن من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيرا.

غواية آدم وحواء

(10) في هاواي، قام « كين ـ كو ـ كونو « بصنع الإنسان الأول « كوموا « هونوا ـ وأعطاه زوجة هي» لالو ـ هانوا « وجعله زعيما ليحكم العالم، فعاش الزوجان في سعادة، وأنذر الزوجين من مغبة الاقتراب من شجرة التفاح « لكين « المقدسة بحديقته وأكل ثمارها إلى أن قابلت « لالو ـ هانوا « طير البحر الكبير الذي كان يقف ليصطاد السمك، فأغراها بأن تأكل من التفاحة وتغلبت شهوة « لالو ـ هانوا» فأكلت، فتحولت إلى طير بحر وحكم على زوجها بالموت، وتحكي الأسطورة أن الموت كان عقابا لتعدي البشر على فاكهة الآلهة.

أسطورة إسكيمو « قرين لاند « تجرم الاقتران بالمحارم(11)

ـ إسكيمو « غرين لاند» يؤمنون بجريمة ربط علاقة جنسية بالشقيقة، وتقول هذه الأسطورة أن الشمس والقمر هما أخ وأخت، وفي غابر الزمان في ليلة قطبية بدأ الناس يلعبون في بيوتهم الثلجية « إيكلو» وأطفأوا الفوانيس وبدأ كل منهم يأخذ المرأة التي كانت معه وأخذوا مشاعل لرؤية كل منهم الآخر واكتشف القمر أن التي معه هي السيدة الشمس وهي أخته ففزع من هول المفاجأة ومزقت الشمس أثداءها وضربت صدرها ورمت أثداءها أمام إله القمر وأخذت شعلة وذهبت إلى السماء ولاحقها أخاها فانطفأت الشعلة التي تحملها وأعطت شعاعا في السماء وهما الآن في غرفتين في السماء ولكن القمر لا يضيء كالشمس لأنه لم يحمل الشعلة، من الذي أوحى لهؤلاء القبائل العزل عن الحضارات قبل حتى نزول الديانة الإبراهيمية أن الأخت تحرّم على أخيها بأي علاقة خارج العلاقة الأخوية الأسرية، والقصة شبيهة بليلة الغلطة عند اليهود.

الطوفان لدى سكان جزر هاواي(12).

اكتسح الفيضان جزر هواي، فهرب « نو « في قارب بنى عليه بيتا ورسا القارب على جبل في جزر هاواي وقدم قرابين للسماء لخلاصه فقدم ثمرة الكافا وخنزيرا وجوز الهند.

وقد جاء في العهد القديم:، فخرج نوح وبنوه وامرأته ونساء بنيه معه، وكل الحيوانات، كل الدبابات، وكل الطيور، كل ما يدب على الأرض، كأنواعها خرجت من الفلك، وبنى نوح مذبحا للرب . وأخذ من كل البهائم الطاهرة ومن كل الطيور الطاهرة وأصعد محرقات على المذبح(سفر التكوين الإصحاح الثامن).

وجاء في القرآن الكريم:) قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (48) تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (49)(هود).

المخلص في أساطير هنود أمريكا الأوائل(13)

تعتقد قبيلة «الأبانكي» من الهنود الحمر بأن « كلوس كاب» وهو البطل ومؤسس الحضارة إذ بعد قيامه بأعمال خارقة ترك العالم وركب مرة على ظهر حوت، ويتوقع هؤلاء الهنود عودته لإنقاذهم.

جاء في العهد القديم: سوف يقتلع جميع أبناء شيث، هذا هو المسيا الملك المعلن عنه هنا، ملكه سوف يسود من البحر إلى البحر. (سفر صموائيل الثاني 8/ 2).

ـقال الله تعالى في قرآنه: وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ.(الصف الآية 6).

ـ اكتشف في البيرو جنوب القارة الأمريكية في محلة « كوزكو» (12) عمودا تشير إلى شروق الشمس، عند الأفق خلال (12) شهرا، ويقسم أهل البيرو السنة إلى(12) شهرا.(29).

لقد انصب نقد بعض المؤرخين على أن العهد القديم قد تضمن عديد القصص والأحداث من الأساطير البابلية وخاصة في سفر التكوين حيث كان كتّابه مطلعين على الأداب الأجنبية، واستفادوا منها في تآليفهم لكتابهم، خلق الأرض والسماء والإنسان، وهناك شق آخر يرجع إلى أن أسباب التشابه هو أن ما جاء بالعهد القديم هو وحي وما جاء بالأساطير هو افتراض تسبب في هذا التشابه، وهناك رأي ثالث جاء به البروفيسورالأمريكي « إيرام برايس» أورده « ألكسندر هايدل « في كتابه سفر التكوين البابلي(14)، والذي أتبناه هو أن ما جاء بالكتاب المقدس وما ورد في الأساطير هو من مصدر واحد ألا وهو التراث الإنساني الذي يمر من جيل إلى جيل ويصاغ في الأساطير وأدبيات الشعوب إلى تاريخ اليوم.

فمن خلال المسح الذي قمنا به في أغلب أساطير العالم باعتماد قاموس أساطير العالم أن الشعوب القديمة استوحت من خلق الكون وخلق الإنسان وعصيان إبليس وعقابه، وخلق آدم من طين وعلى صورته وخلق حواء من ضلعه، كما نقلت أهم قصص أغلب الأنبياء بداية من آدم وحواء والنبي إدريس، ونوح، ولوط، ويوسف، وموسى، ويوشع ابن نون، ونلاحظ أن الاقتباس في بعض الأحيان يكون مكتملا أو منقوصا.

وفي بعض الأحيان تجد القصة الواحدة منقولة من عديد الشعوب ومحافظة على أهم مقوماتها مثل التشابه بين قصة لوط مع زوجه و»أوريفيوس» الإغريقية وزوجه، وعروج إدريس ونزول سيزيف إلى العالم السفلي وذبيح الله إسماعيل وذبيحة الآلهة إفجينيا الإغريقية، ويوسف وزليخة و»بيـــللـيروفـــون» و «أنـــتيا»، والتشابه بين قصة موسى و»أبولو»، ويوشع ابن نون والملك «أوديب»، وأحيانا باختلاف طفيف حسب المعتقد الذي صيغت فيه في اقتباسات آخرى عديدة.

لقد أثبتنا فقط القصص التي كانت عناصر التشابه فيها كبيرةوقوية لا مجال للعقل السليم إلا قبولها، واستبعدنا تلك التي كانت عناصر التشابه فيها ضعيفة.

كما أثبتنا ما استوحته الشعوب في مجال الاعتقادات، ورمزية البقرات والسماوات السبع والأرضين، السبع والآخرة والبعث والعقاب الجنة والنار.

خاتمـة عامـة

وقد خلصت من خلال هذه الدراسة إلى النتائج الآتية:

إن أساطير الشعوب التي درستها هي منقولة عن وعي أو دونه من الرسالات السماوية والتي تتضمن كلها وحدة معلومات لا تتغير من رسالة إلى أخرى ومن نبي إلى آخر، وحتى الشعوب التي لم تبلغها رسالة موسى ولا اطلعت على الكتاب المقدس من قبيل قبائل القارة الأمريكية التي قام أسلافها بالهجرة من العالم القديم قبل 10آلاف سنة أي قبل الرسالة الابراهيمية، وقبل حتى قيام حضارات بلاد الرافدين والحضارات المصرية حيث أنها استمدت أساطيرها من التراث الإنساني الشفوي الموحد المتداول في زمانها، من آدم إلى إدريس إلى نوح وغيرهم من الأنبياء، معلومات قصص وعبادات وعادات وتقاليد ترددها الشعوب من جيل إلى جيل، تصوغها ضمن أساطيرها، وتدخلها في نسيجها الديني والثقافي دون أن تعلم حقيقتها، تكون متكاملة حينا ومنقوصة أخرى، وأكبر دليل على ذلك أساطير ما بين النهرين السابقة لنبوة موسى ونزول التوراة، وقد تضمنت قصص بداية الخليقة من خلق الكون « الأرض والسماء،» وخلق الإنسان من طين وعلى صورة الله.

فمثل هذه القصص وغيرها هو مما صاغته الشعوب الأخرى مستلهمة أساطيرها مما تنزلت به الرسالات السابقة لرسالة موسى غير المدونة والتي كانت حبيسة الذاكرة الإنسانية قبل أن تدخل في نسيج التراث الإنساني بأشكال واعتقادات مختلفة ثم أصبحت تراثا إنسانيا تشترك فيه كل الشعوب، وهذه الأحداث والقصص لها القدرة على التكيف عبر الأزمان ومختلف الشعوب لتصاغ في نسيج أسطوري جديد.

---

8) المصدر نفسه ص 195.

9) موقع الحوار المتمدن ـ الأساطير والأديان ـ سامي المنصوري.

10) قاموس أساطير العالم ص232.

11) المصدر نفسه ص 186.

12) المصدر نفسه ص 252.

13) المصدر نفسه ص 139.

14) سفر التكوين البابلي ص 192.

بعد ربع قرن من إقراره:

تونس تحتضن أول لقاء للسوق الثقافية العربية المشتركة

صالح سويسي

هل يمكن الحديث عن سوق ثقافية عربية مشتركة في غياب قاعدة بيانات توفر الأرقام والمعطيات؟ وهل يمكن الحديث عن سوق ثقافية عربية مشتركة أمام نُدرة البحوث العلمية الأكاديمية في مجال السياسات الثقافية؟ وهل يمكن الحديث عن سوق ثقافية عربية مشتركة وميزانيات وزارات الثقافة في بعض الدول العربية هزيلة؟ ثم هل يمكن التأسيس لمثل هذه المبادرة المميّز دون الوقوف عند عدة حقائق لعلّ أهمها ما أفرزته مواقع التواصل الاجتماعي من أنواع جديدة من جماهير الثقافة؟ فضلا عن الأشكال التسويقية الجديدة التي تعتمد الثورة الرقمية وتحديدا أدوات الذكاء الاصطناعي التي أصبحت في متناول الكثيرين اليوم؟

هذه الأسئلة وغيرها خامرتني وأنا أواكب أول لقاء حول السوق الثقافية العربية المشتركة في مدينة سوسة والذي نظمته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بالاشتراك مع وزارة الشؤون الثقافية التونسية ووزارات الثقافة في الدول العربية وعديد المؤسسات والمنظمات الفاعلة في الشأن الثقافي والذي ينتظم بعد إقراره بنحو ربع قرن.

إن طرح مثل هذه المبادرة تأتي في وقتها، خاصة مع ما يشهده العالم من تكتّلات في جميع القطاعات بما في ذلك القطاع الثقافي الذي يجب أن يكون في عمق العملية التسويقية لكل الحكومات العربية وفي صلب برامجها التنموية، مع الأخذ بعين الاعتبار تغيّر نوعية الجماهير المُستهدفة من خلال المنتوجات الثقافية وأشكال تسويقها وتوفير كل الظروف التي من شأنها أن تعزز حضورها في قاعدة العرض والطلب.

وكمُتابع للشأن الثقافي التونسي والعربي، أرجو أن يتجاوز هذا المشروع مراحل التنظير ويدخل مراحل التطبيق دون انتظار ربع قرن آخر.

انتظم هذا اللقاء الأول، اعتمادًا على توصيات مؤتمرات الوزراء المسؤولين عن الشؤون الثقافية بالدول العربية خاصة مؤتمر الرياض في نوفمبر 2000، بخصوص العمل على تطوير الاقتصاد الثقافي والصناعات الإبداعية وإنشاء سوق ثقافية عربية مشتركة تعمل على إحلال الصناعات الثقافية الوطنية محل المستوردة، وتشجيع تبادل المنتجات والسلع والخدمات الثقافية بين الدول العربية.

هنا نقدم وجهات نظر مختلفة لعدد من المشاركين، لكنها تصب جميعها في سياق تأسيس سوق ثقافية عربية مشتركة يمكن أن تساهم في تطوّر المنتوج الثقافي العربي وتسويقها.

أحمدو حبيبي: تحدّيات جديدة ورغبة في التأسيس

قال الدكتور أحمدو حبيبي الخبير لدى «الألكسو» ومنسق اللقاء أنّه «يندرج في إطار حرص المنظمة على تنفيذ توصيّات مؤتمرات الوزراء المسؤولين عن الشؤون الثقافية في الوطن العربي، هذا المشروع كان مؤجلا من أكثر من 20 سنة، وتم بحثه في عدة هيئات عربية منها مؤتمرات الوزراء، واللجان العربية المتخصصة، منها اللجنة الدائمة للثقافة العربية».

وأضاف حبيبي «نسعى اليوم إلى إعادة إطلاق هذا المؤتمر والتفكير فيه بشكل مغاير بحكم التحديات الجديدة وبحكم الوظائف الجديدة للثقافة وبحكم تطور اِلتزامات الثقافة تجاه العالم وإدراجها ضمن أطر التنمية الدولية المستدامة وضمن السياسات العامة خاصة لتعزيز دورها في التشغيل ومحاربة الفقر والاندماج الاجتماعي».

وقال المسؤول في الألكسو «هذا يتطلب منّا العمل على إعادة بحث هذا المشروع الذي يُعزّز تبادل السلع والمنتوجات الثقافية بين الدول العربية، ويعزّز حركة الفنانين والمبدعين والمثقفين بين هذه الدول، ويساعد أيضا في التكامل الثقافي العربي وتعزيز مساراته فيما يُساهم في حماية الهوية والخصوصية الثقافية في مواجهة مع التكتلات الثقافية القائمة مثل الاتحاد الأوروبي والصين وأمريكا التي تسعى كلها على فرض هيمنة ونمط ثقافي واحد على العالم».

سلوى عبد الخالق: آفاق كبيرة للاقتصاد الثقافي الرقمي

قالت الأستاذة سلوى عبد الخالق المدير العام لمركز تونس للاقتصاد الثقافي الرقمي «كوني خبيرةً في الاقتصاد الثقافي الرقمي، فإنّني أعتبر أن هذا المجال واعد جدا وخاصة أنّنا في تونس متميزون من حيث عديد الأشياء، من حيث المؤسسات الناشئة التي تعمل في هذا المجال ومن حيث انشاء هذا المركز لقناعةٍ بأن هذا الاقتصاد له مستقبل كبير في العالم وتركز عليه أغلب الدول حتى الدول الكبرى ومنذ عقود من الزمن.

وأضافت «الثقافة التونسية اليوم على موعد كبير مع هذا الاقتصاد خاصة أن لها جميع الامكانات من حيث الطاقات الشابة وإنتاج المضامين الثقافية الرقمية القابلة للترويج بطريقة أسرع».

واستدركت عبد الخالق «ولكن كل هذا يبقى مرتبطا بطريقة التسريق، وكيف وأين سنسوق هذا المنتوج؟ إذا كانت هناك تجمعات كالتجمعات الأوروبية وغيرها تحمي منتجاتها وتحمي الطرق التسويق فأين نحن من هذه الطرق وكيف نحمي طرق التسويق وكيف نقوم بإنشاء سوق مشتركة كالتجمعات الكبرى الموجودة في العالم كالتجمع الأوروبي مثلا وهنا السوق العربية المشتركة تمثل موعدا كبيرا وتمثل فرصة كبيرة حتى نوفر هذه السوق ونوفر هذه المساحة للترويج لهذه المنتوجات والرقي بها والرقي بلدنا».

مريم مهاجي: البحث العلمي في خدمة الإنتاج الثقافي

الدكتورة مريم مهاجي المتخصصة في السياسات الثقافية وبرامج التنمية في المنطقة العربية «فيما يخص البحث العلمي أنا منذ تقريبا 2009 خضت المعركة لإثبات أن قطاع الثقافة ممكن يكون محرك أساسي للتنمية في المنطقة، وأزمة البحث هي أزمة إحصاءات وأرقام، والدليل أننا إذا توجهنا نحو الهيئات المتخصصة في الأمم المتحدة وما شابه لا نجد شيئا خاصا بالدول العربية قليلة جدا أو منعدمة، وهنا كيف يمكن أن نقيّم السوق أو نبني اشكاليات مممكن ننجز من خلالها بحوثا، ثانيا ما زلنا نتحدث بالمنظور الأكاديمي البحت، مازال الموضوع الأساسي تعريف الثقافة وتعريف المثقف وهي أشياء تجعلنا نبدو متخلفين في المجال».

وترى أن الحلول تكمن في العمل مع مؤسسات مختلفة، وعدم عزل قطاع الثقافة وخاصة الحكومي وربطه بالبحث العلمي، وتبادل الخبرات ومشاركة المعلومات، هناك مشاريع تُبنى لا تجد لها تقارير نهائيا، ويوم ننجز تقارير شكليا جميلة ولكن لا أرقام ولا إحصائيات.

هناك تطور في البحث العلمي الذي يقدم حلولا لعديد الإشكاليات، فلماذا الا نُوجه المؤسسات الأكاديمية نحو هذا، للاستفادة من البحوث حتى في مجال سوق الشغل؟».

وقالت مهاجي «أنا أتكلم عن البحث العلمي ولكن ليس بالشكل الكلاسيكي حان الوقت أن يصبح ميدانيا، فالمجال الثقافي ليس مجالا إبداعيا فقط بل هو مجال بحثي وتكويني، وهو ما يزيد من ثقل القيمة الرمزية للثقافة، فأنت لا تدرس السوق فقط بل تدرس التداعيات الاجتماعية».

المنجي الزيدي: الثقافة والتسويق والجمهور الجديد

قال الدكتور المنجي الزيدي أن العلاقة بين الثقافة والسوق علاقة فيه الكثير من التناقض، فقديما كانوا يعتبرون أن الثقافة في مكان عالٍ بينما للتجارة معانٍ ودلالات سلبية، كما كان لدى ابن خلدون مثلًا والذي يعتبر الفن والأدب والموسيقى علوما ولكنه في المقابل يصف التاجر بأوصاف الاحتكار وينقص من قيمته وهنا يمكن أن نتحدث عن انتزاع الحدود بين الثقافة والسوق».

وأضاف «لكن المسألة اليوم لم تعد تطرح بعد الثورة الصناعية ثم بعد الثورة الرقمية، بمفهوم الرفض المتبادل، الآن أصبح الأمر مفروضا، واقتصاد الثقافة بدأ في الظهور منذ خمسينات القرن الماضي، ومع الثورة الرقمية ظهرت ميزتان لهذا الاقتصاد، اقتصاد الاهتمام واهتمام المشاركة».

وفيما يتعلق بالتسويق عبر الثقافي بما هو مفهوم اقتصادي ثقافي بامتياز حيث لا يمكن فصل القيمة المادية لأي منتوج كان عن رمزيته الثقافية، وخاصة حين يتعلق الأمر مع المنتوج الإبداع، ولكن لماذا تُطرح هذه المسألة اليوم؟ لأن هناك جماهير جديدة اليوم، أصبح الآن الجمهور مختلفا والذوق أيضا والممارسات الثقافية، وبالتالي ما كنت تعتبره أنت ثقافة أصبح شيئا مغلقا لدى الشباب، ثم إن الفنان كان ينتج والجمهور يستهلك أما اليوم فقد أصبح هذا الجمهور شريكا في إنتاج الثقافة».

وخلص إلى أن هذه هي الثقافة السائدة اليوم من منظور الجمهور، وهي المنتشرة في وسائل التواصل الاجتماعي، لذلك يرى أن نظرية السوق الثقافية لن تنجح طالما لم تراعِ أننا لسنا بمعزل عن الاهتمام باقتصاد المشاركة.

«كاميكاز»: رحلة الخلاص... أو غربة الكائن في حضن الوطن

صالح سويسي

كان يمكن للمخرج التونسي حسّان المرزوقي أن يصنع فيلما روائيا طويلا، لكنّه اختار الاختصار والتكثيف وقدم فيلما قصيرا لم يتجاوز الثلاثين دقيقة.

فيلم سينمائي اختار صانعه أن ينطلق بمشهد صادم ومقرف وبشع، وكأننا على موعد مع فيلم رعب من تلك التي كنّا نختم بها بعض سهراتنا أيام أشرطة الفيديو، فنقضي بقية الليلة نتقلّب ذات اليمين وذات الشمال.

مشهد أول لأشلاء بشرية وجثة مشوهة ملقاة في مشرحة، يفتتح به المرزوقي عمله الجديد وكأنه يُهيّئ المشاهد منذ اللحظات الأولى لفظاعات أكبر.

هذا المشهد المقزز يحملنا مباشرة لمصافحة «حكيم» وهو يغسل إحدى الجثث بسعادة وشغف مريب وكأنه يجهّز عريسا للقاء عروسه في ليلة العمر.

وجه حكيم طافح بالسعادة، ونظراته نظرات عاشق متيّم للجثة أمامه، وهو ما يزيد من غرابة الأمر لدى المشاهد.

حكيم داخل المشرحة رجل عاشق مفعم بالحياة والفرح، أما خارجها فهو شخص متشنج عصبي المزاج يكره النور والناس والحياة.

مفارقة عجيبة أليس كذلك؟

لكنها حقيقةُ بطل «كاميكاز» الذي أراد المرزوقي أن يحمل مشاعر متضاربة وتصرفات متوترة وغير قابلة للفهم أو التفسير.

هو كما قال مخرجه «أول فيلم من نوع «البسيكودراما» في تونس، ينبش عميقا في شخصية حكيم الذي اختار أن يعيش مع الأموات ويقطع صلته بالواقع ويسعى لبناء عالم خاص به داخل المشرحة.

وحتى حبيبته وهي الوحيدة في دائرة علاقاته بالأحياء لم تكن في منأى عن رغبته في التحاقها بعالمه رغم محاولاتها المتواصلة لإنقاذه مما هو فيه، لكنها تفشل وتصبح جزءا من سكان المشرحة.

الغربة في حضن الوطن

في حديث يجمع حكيم بحبيبته يقول «هذه بلادك أنت، لم تكن يوما بلادي... أنا أكبر منها، لن أواصل العيش فيها» ويضيف بتشنج «بلاد الفقر، لا يمكنني أن أكبر فيها أو أعيش».

فتجيبه حبيبته «ما أحلاك... لماذا الغضب؟ تونس ليست سيئة، هي فترة صعبة، سنتزوج ويتغير كل شيء» لكنه يجيبها «لا أدري ما الجميل الذي ترونه أنتم فقط».

من هنا تبدأ مرحلة فهم تفاصيل شخصية حكيم، الرافضة لكل ما يحيط بها، الباحثة عن سبيل للخلاص ممّا «يخنقها» كما جاء على لسانه.

«كاميكاز» المرزوقي يُحيلنا مباشرة على فرضية البحث في تيمة الغربة داخل الوطن وبين الأهل، والشعور بالوحدة وسط الزحمة، والإحساس العميق بالخوف من المستقبل الذي يبدو ضبابيا بل قاتما أحيانا، ومن ثمّة يبدأ السعي لتأسيس عالم خاص، عالم انتقائي ولو كان ذلك عن طريق العنف والقتل أو إيذاء الآخر، والذي يرى بطل العمل أنها عملية تطهير للذات كي تبدأ من جديد.

صحيح أن الفكرة ليست جديدة لكن الطرح مُشبع بالواقع التونسي «الجديد» الذي يسعى كثيرون للتخلّص منه بأي طريقة حتى لو كان ذلك عن طريق الموت (الهجرة غير النظامية والموت في البحر أو الانتحار...)

فيلم قد يبدو أنه يكرس لغة العنف والسادية في ظاهره لكنه يطرح إشكالات كبيرة ومعقدة في علاقة الفرد بالمجموعة وعلاقة الفرد بذاته الرافضة لواقعها...

الموت... هدف أم نتيجة؟

«بسيكودراما» قصيرة لم تتجاوز الـ 30 دقيقة، كانت حمّالة رسائل ومواقف واحتمالات كثيرة لقراءات متعددة تُحدّدها عدة عوامل لعلّ أهمها العامل النفسي.

إنّ الأصل في الأمور أن الإنسان كائن متشبّث بالحياة بشكل لا يوصف إلا فيما ندَرَ، كائن جُبل منذ بدء الخليقة على حب الحياة والسعي بكل السُبل للتمسك بها لآخر رمق، ولكن المرزوقي يضعنا أمام حالة مغايرة تماما، يضعنا أمام صورة أخرى لإنسان يرفض الحياة ويسعى للموت التي يعتبرها خلاصًا أو بداية جديدة.

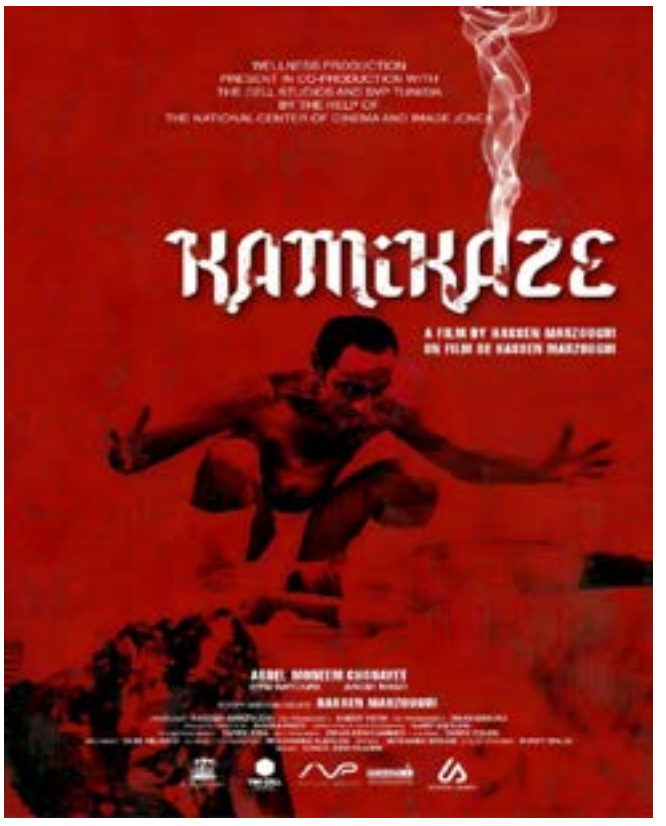

الموت في «كاميكاز» كان رديف العنف والتشفّي، لم يكن موتا عاديا أو فُجئيّا في كل تمظهراته، كان موتا مدروسا يسبقه عنف متفاوت حسب نوع الضحية.

ولم يكن العنف غائبا عن السينما العالمية والعربية وكرّس عدد كبير من صنّاعها مساحات كبيرة له مع تعدد أشكاله وتباين حضوره، ولم تخلُ بعض الأفلام التونسية منه وبتفاوت واضح من عمل إلى آخر.

لكن هذا العمل وضع المشاهد أمام بشاعة الواقع الذي أصبح يطبع المجتمع التونسي (لفظيا وجسديا) ولكنَّ أشكال تقبّله والتعايش معه تختلف من شخص إلى آخر حتى أن ثمّة من طبّع مع العنف ويَعُدُّهُ أمرا عاديا فيما يرفضه البعض الآخر لتبقى الغالبية على هامش الأحداث تمارس صمتها القاتل.

«ربما يمكننا أن نعتبر أن أكثر ما يدق ناقوس الخطر حاليا هو أن العنف قد أصبح أمرا شائعا للغاية في العديد من المجتمعات، بحيث يُعتَبر حدثا طبيعيا بدلا من كونه استثناء» هذا ما بدأ به الباحثان الأمريكيان «ديفيد جونسون» و«روجر جونسون» كتابهما المهم عن «العنف» والذي نُشِر في عام 1995، وهو ما يضعنا أمام كمّ من الأسئلة التي جعلت بعض المجتمعات عنيفة أو معتادة على العنف.

ومهما يكن من أمر، فليس من أدوار السينما أن تبرّر العنف أو ترفضه، بل هي تطرح أفكارا ووقائع برؤية فنية وتترك الباب مواربا أمام المتلقي.

وبالعودة لبداية الفيلم، نسمع صوت سيلان الماء من الحنفية يقطعه صوت لِهاث شخص لتنكشف الصور الأولى على مشهد يد مقطوعة وبقايا قدم وقلب، ثم تتحول الكاميرا مباشرة إلى جسد مُمدّد تبدو على الرقبة آثار ذبح أو خنق، ثم يظهر وجه مشوّه لجثّة أخرى، قبل أن يتصاعد صوت اللِهاث لتقترب الكاميرا أكثر من شخص يقوم بتغسيل الجسد.

ولكنّ اللافت أن المُغسّل كان يستمتع بعملية الغسل وملامسة الجسد المُسجّى أمامه بطريقة مُبهمة تدعو للدهشة.

تلك الدهشة التي ستتلاشى تدريجيا مع كشف المخرج لشخصية حكيم في بقية الأحداث التي ستتلاحق بشكل سريع، وهو ما صنع إيقاع العمل الذي بدأ بطيئا لكنه أخذ في التصاعد بشكل جعل المشاهد تتتالى دون أن تخلّف الملل، كما أن اختيار الموسيقى التصويرية كان له إضافة مهمة وساهم في شدّ المتلقّي رغم بشاعة بعض المشاهد.

ولا أعتقد أنه من باب الصدفة أن يتضمن فيلم «كاميكاز» رائعة المغنّي الأمريكي الأسطورة فرانك سيناترا «غرباء في الليل» فربما أراد المرزوقي من خلال هذا الاختيار أن يحفز في المشاهد، الرغبةَ في البحث عن الخيط الرابط بين فيلمه وفيلم «A Man Could Get Killed» لرونالد نيم وكليف أوين والذي صدر عام 1966 (رغم اختلاف الفكرة والطرح ظاهريا) وهو الشريط الذي كانت الموسيقى التصويرية فيه جزءًا من أغنية سيناترا.

البياض القاتل

من المفارقات في هذا العمل السينمائي تركيز المخرج على أن تكون المشرحة أو غرفة الموتى مضاءة بشكل مبالغ فيه، فالغرفة التي تجمع الجثث يطغى عليها البياض وينبعث فيها ضوء كثيف على عكس الصورة النمطية التي كرّستها الذاكرة الجمعية لمكان تجميع الموتى، وحدها الأرضية التي تسبح في مياه حمراء تكسر البياض وتَشي بروائح الموت.

روائح الموت التي ستزيد مع تواتر الأحداث وتزايد عدد الجثث، انطلاقا من جثة الشخص الذي خنقه حكيم في الشارع، مرورا بجثة الشرطي الذي قتلته حبيبته حين كان يراودها عن نفسها ويطاردها وصولا إلى جثتها هي حيث وفي لحظة مكاشفة يُقدم حكيم على قتل حبيبته.

وفي مشهد أخير يحمل حكيم مسدس الشرطي المقتول ويتمدّد بجانب جثة حبيبته، يقبّلها ثم يطلق رصاصة النهاية في رأسه.

لعلّ إدراج مشهد الشرطي الذي يطارد الفتاة ويراودها عن نفسها، يلخّص ما يشعر به كثير من التونسيين من عدم الأمان والخوف وعدم الاستقرار وتناقص الثقة تجاه الدولة التي فشلت في تحقيق حياة كريمة لمواطنيها ما دعا كثيرا منهم للهروب نحو ضفّة أخرى أكثر راحة ولو كان ذلك بسَلْكِ طُرق محفوفة بالموت.

ويمكن لهذا العمل أن يتجاوز حدوده التونسية، ليُلقي بظلاله على عديد الأنظمة التي تمارس العنف في تدبير أمورها وشؤونها، ومهما يكن من أمر فقد طرح الفيلم عددا من المواضيع التي قد يتطلب كل واحد فيها فيلما خاصا به.

وفي الخلاصة، اختار بطل الفيلم أن يعيش حيّا بين الأموات لا ميّتا بين الأحياء، حتى اللحظة التي قرر فيها أن تلتحق حبيبته بعالمه، وهي اللحظة التي حددت خياره الأخير ليتخيّر نهاية رحلته مع الأحياء.

«كاميكاز» فيلم سينمائي قصير من إخراج حسّان المرزوقي وبطولة عبد المنعم شويات وريم حيّوني، ويُذكر أنّ المخرج وبطل العمل سبق أن اجتمعا في فيلم «بقشيش» سنة 2021.

المهرجان البيئي بالشابة :

نحو مدينة إيكولوجية مستدامة

منى النوري / فنانة تشكيلية وباحثة، تونس- صفاقس

تتداخل الفنون وتتفاعل بطرق متعددة، ويُعتبر الفن التشكيلي من أبرز المجالات التي تتيح للفنانين استكشاف وتقديم أفكار جديدة بحرية. هذا التفاعل الفني لا يقتصر على الإبداع الشخصي بل يمتد ليشمل قضايا عالمية هامة، مثل التحديات البيئية التي نواجهها اليوم. فمع تزايد مشكلات التغير المناخي والتلوث، يظهر الفن كأداة قوية للتوعية والتحفيز على التغيير. إذ يُمكن الفنانين والمبدعين من نقل رسائل بيئية هامة من خلال أعمالهم، مما يعزز الوعي حول أهمية حماية البيئة ويدفع المجتمع نحو تبني حلول مستدامة. في هذا السياق، نجد المهرجان البيئي بالشابة صوتا فاعلا وأداة فنية تحفز الحوار لبناء توازن أفضل مع طبيعتنا.

تحت إشراف جمعية صيانة وتهيئة مدينة الشابة بالتعاون مع جمعية الفنون والمحيط أُقيمَ المهرجان البيئي بالشابة في دورته الأولى في إطار مشروع الشابة « Eco Care». مشروع «الشابة Eco Care» هو مبادرة تمتد على مدار ثمانية أشهر، من جويلية 2024 إلى فيفري 2025، ويهدف إلى نشر الوعي والتوعية بالمخاطر البيئية المتزايدة. يركز المشروع على معالجة التحديات البيئية التي تزداد تعقيدًا يومًا بعد يوم، من خلال تقديم برامج تثقيفية وحلول عملية. يُمول المشروع من قِبل اللجنة الأوروبية للتكوين والفلاحة (CEFA) ويأتي ضمن برنامج يهدف إلى تعزيز القدرة على التكيف مع التغيرات المناخية. يسعى هذا المشروع إلى تحقيق تأثير إيجابي مستدام في المجتمع، من خلال تحسين الفهم الجماعي للأزمات البيئية وتعزيز استراتيجيات التكيف والتخفيف منها.

ويُعد المهرجان البيئي بالشابة في دورته الأولى،حدثًا بيئيًا بامتياز حيث يهدف المهرجان إلى تعزيز الوعي البيئي من خلال الفن، وتسخير الإبداع لتطوير فهم أعمق للعلاقة بين الإنسان وبيئته، وفي هذا الإطار يساهم المهرجان في إرسال رسائل تندرج ضمن مفهوم الفن الايكولوجي فتتخذ من التوعية أساسا ومن الإصلاح هدفا إجتماعيا يصل لكافة الفئات بدءًا من الأطفال والمراهقين وصولاً إلى البالغين من خلال دورات تكوينية صلب المؤسسات التعليمية من مدارس ابتدائية وإعدادية الى المعاهد مع دمج البحارين ضمن هذا المشروع من خلال تكوينهم غاية التوعية والتحسيس، مع الإهتمام وتكوين الفئة العاملة في تجميع البلاستيك غاية توصيل المعلومة والمعرفة الى كل الفئات العمرية والشرائح المجتمعاتية. امتد المهرجان من 22 إلى 25 أوت 2024، وتضمن مجموعة من الورشات الفنية التي شملت مختلف أشكال التعبير التشكيلي من رسم ونحت... حيث سعى المهرجان من خلالها إلى أن تكون مدينة الشابة نموذجًا للسير نحو مبدأ المدينة الإيكولوجية المستدامة، وذلك عبر ترسيخ ممارسات تحفظ حق الطبيعة من خلال إدراج ورشات تعنى

بالرسكلة وإعادة التدوير وابراز الدور الذي يلعبه الفن في تحقيق وعي بيئي يحفظ حقوق الأجيال القادمة.

وقد إمتدت الورشات طوال اليوم الأول والثاني والثالث للمهرجان مما أضفي ديناميكية وتشاركية، ومن بين الورشات التي أُقيمت، والتى نجد فيها رسائل جوهرية إهتمت بالبيئة هي ورشة الأشرعة التى أطَرتها الفنانتين التشكيليتين إيمان زرود وأمل ميساوي حيث أنتجتا لنا ساحات فنية لندرك فيها عالمنا من جديد، أشرعة لامست معضلاتنا اليوم وبشرتنا بمستقبل أفضل حيث يكون الطفل ركيزة المستقبل. يتمثل العمل في هذه الورشة، في الرسم على الأقمشة التى تستعمل كأشرعة للقوارب

(قلاع)، والتى إستعملها البحارون ضمن جولة بحرية كأشرعة لسفنهم توَجوا من خلالها هذه الورشة.

هذا النشاط لم يكن فقط فرصة للأطفال للتعبير الفني بل هو تجربة تعلمية توعوية فكل شراع يبدو فريداً ويعبر عن هوية أو رسالة مختلفة، هناك رسومات تصور كوكب الأرض وأخرى تتضمن أشكال هندسية، وتتراوح الألوان ما بين الأحمر والأزرق والأخضر وبعض التدرجات اللذين حملو في طياتهم دلالات رمزية مختلفة . وأشرعة أخرى تحمل رسومات تجريدية بينما يحمل بعضها رموزًا ودلالات واضحة، كل هذه الأعمال ترتكز بالأساس على العمل التشاركي والتفاعلى للأطفال والمؤطرتين.

حسب تقديري أصبحت هذه القوارب ذو صبغة فنية علمية أكثر من الصبغة النفعية اذ لم تعد مجرد وسيلة نقل أو وسيلة لربح القوت اليومي (الصيد)، بل أصبحت لوحات فنية عائمة، تجمع بين الفائدة العملية والجمالية والفنية المشبعة بالرسائل. يمكن اعتبارها تعبيرًا يدمج في طياته بين البيئ، التراثى والفنى.

ومرورا لورشة الخشب التى تم تأطيرها من قبل الأستاذة سالمة بن رمضان و الأستاذة جايلة عباس التى إعتمدت فيها الأستاذتان مفهوم الرسكلة وإعادة التدوير وهما من أهم المفاهيم التعلمية التى تغرس في الأطفال والمتلقي عامة القيمة البيئية ومبدأ الحفاظ على الموارد مما يعزز الوعي بالمخاطر التى تحيط بنا. تبرز بعض النماذج للأعمال الفنية استخدام الأخشاب المعاد تدويرها مما يعكس فلسفة فنية تدعو الى استخدام المواد المتوفرة لإبتكار أعمال فنية جديدة. تضمنت هذه الورشة أعمالا إرتبطت بالكائنات البحرية مما يحيلنا الى

استقبال رسائل توعية تدور حول تأثير النفايات على المحيطات وضرورة إعادة استخدام المواد المهدورة بدل التخلص منها بطريقة تؤثر سلباً على البيئة.

وقد أشرفت الأستاذة والفنانة راضية سيدهم صحبة الأستاذة هدى منارة على تأطير ورشة الرسم مما أنتج أعمالا فنية تعبيرية، عززت من خلالها هذه الورشة الحس الإبداعي للأطفال وتطوير مهاراتهم الفنية من خلال صقل الحس الإبداعي لدى كل مشارك في الورشة ، وكانت الورشة أيضا مجالا للتفاعل والمشاركة بين جميع مشاركيها مما ساهم في تطوير الملاكات الإبداعية من خلال تنمية الخيال الإبداعي الفني وتعزيز الثقة بالذات وغرس القيم الإيكولوجية فيهم.

لم تخلو جميع الورشات من الرسائل التى تنص على الحفاظ على كوكبنا وعن الانسجام الذي يخلقه الفن مع الطبيعة، إذ أن للفن قدرة أكبر وتأثيرا أكثر للتنبيه للمشاكل التى تهدد البشرية ومدى أهمية أن نحافظ على بيئتنا لكي نحقق الاستدامة.

استمرت فعاليات المهرجان، مما أتاح الفرصة لتنصيب مجسم فني في المدينة، صممه فنانون محترفون. يتميز هذا المجسم بطابعه الفني العملي، حيث يسمح للسكان بالمساهمة في تجميع المواد البلاستيكية داخله.إذ تضيف هذه المجسمات بُعدًا فنيًا وجماليًا يعزز الروح الثقافية في المدينة.

وفي الختام، قدم المهرجان تجربة فنية إيكولوجية بأساليب مبتكرة تجمع بين البساطة والتعليم، معبّرة بعمق عن رسائل وأهداف بيئية وثقافية. كانت هذه التجربة ثرية في محتواها، توازن بين الفن والتوعية، وتلهم الجمهور لإحداث تأثير إيجابي على البيئة والمجتمع.

ومع استمرار هذه المبادرات والمهرجانات الجهوية، يبقى السؤال مفتوحًا: متى ستُطبق النظم والاستراتيجيات الإيكولوجية بشكل فعّال في تونس؟ وما هي الخطوات التي يمكن اتخاذها لتسريع تفعيل هذه المبادئ؟ إن الإجابة على هذه الأسئلة قد تكون خطوة مهمة نحو إنارة الطريق لبناء جيل واعٍ يُدرك أهمية الحفاظ على البيئة ويكون جزءًا فَاعلًا في مواجهة تحديات التغيرات المناخية. فمن خلال التوعية والتثقيف البيئي، يمكن لهذا الجيل أن يلعب دورًا محوريًا في تبني الممارسات المستدامة، والعمل على الحد من آثار التغيرات المناخية التي تهدد مستقبلنا المشترك. فتعزيز مثل هذه المبادرات يفتح آفاقًا جديدة لتغيير العادات اليومية والمساهمة في تحقيق توازن بيئي على المدى الطويل.

أرى النّخل يمشي
(ترجمة زهرة هواشي)

الشّاعر المناضل الرّاحل
الطّاهر الهمّامي

JE VOIS LES PALMIERS MARCHER

JE VOIS MARCHER LES PALMIERS
ILS SE BATTENT ET DÉFIENT
LES TÊTES HAUTES BIEN LEVÉES
AVEZ -VOUS JAMAIS VU
DES PALMES PAR TERRE JETÉES

AVEZ-VOUS JAMAIS VU
UN PALMIER SUR UNE TERRASSE
ET UN BLESSÉ SOIGNANT SA BLESSURE
SORTANT PAR LUI MÊME LA BALLE
LE RICIN S'INCLINE
ET LES FEUILLES DE SCILLE SÈCHENT

JE VOIS LES PALMIERS
DANS LA FOULE MARCHER
ET PENDANT L'ATTAQUE
LEURS CILS AU SOLEIL S'ATTACHENT
LEUR GLOIRE EST TRÈS PROCHE

Ô TOI QUI TE DÉBARRASSES
DE TA RAISON
ET PAR LES MIRAGES LA REMPLACES

JAMAIS LES PALMIERS NE PLEURENT
ILS CHANTENT AVEC LES OISEAUX
LES ENFANTS
ET LA MER

AVEC LE BLÉ ET LES ÉCLAIRS
AVEC L'AUTOMNE GRONDANT
AVEC L'HIVER

JE LES VOIS MARCHER
AVEC LES MACHINES DES OUVRIERS
ET AVEC LES CHAMPS MOISSONNÉS
MALGRÉ LES DOULEURS ET L'OBSCURITÉ

JE LES VOIS HAUTAINS LES PALMIERS
ILS MARCHENT
ET NE RECULENT JAMAIS !

أرى النخل يمشي في الشوارع

مرفوع الجبهة فارع
يتحدّى و يصارع
هل رأيتم ذات يوم
سعف النخيل
على السّبيل
هل رأيتم نخل واحة
فوق ساحة
وجريحا ينزع الحبّة من صدره
ويلمّ جراحه
نكّس الخروع أعناقه
وطوى العنصل أوراقه
أرى النخل يمشي
وسط الزحمة يمشي
وسط العتمة يمشي
وسط الهجمة يمشي
مشدود الهدب إلى الشمس
موعود الصّابة
أيّها الناسي صوابه
أيّها المبدّل بالوهم ثيابه
النّخل لا يبكي
النّخل يغنّي
مع العصافير والأطفال
مع مياه البحر
مع قمح الجبال
مع البرق
مع الخريف الهادر
مع الشّتاء
أرى النخل يمشي في الشوارع
بحديد المعامل
وحصيد المزارع
ورغم الليالي
ورغم المواجع
أرى النخل عالي
ولا يتراجع !

قصص قصيرة جدا

سامي حمام

1. الهاتف

وصلت الى المقهى، أخذت كرسيا وجلست بجانب صديقي، قال بلقاسم :
- أين صديقتك ...؟
- بقيت في العاصمة لقضاء بعض الشؤون ...ستلحق بنا ...
- هاتفها حتى نعرف متى ستأتي ... طلبتها ...
- هاتفها مغلق ...
صاح بلقاسم
- لقد اختطفتها المخابرات !!!
لاحظ أحمد علامات التعجب على وجهي فقال:
- تعودنا على ذلك ... كل من اختفى واغلق هاتفه نعرف انهم اختطفوه ....

2 ـ دراكولا

ظهر فجأة على الشاشة بلباس غريب ... على صدره علقت نياشين من كل نوع وحجم...شعره اسود ... شديد السواد ...وجهه خال من التجاعيد ... مهرج خرج الان من قاعة التجميل ...صياح ... حركات عشوائية ... ارتمت الطفلة الصغيرة على صدري أبيها باكية... ترتجف من الخوف ... هدأ من روعها ...قال لها :
- لا تخافي... ألم تعرفيه ؟؟؟
- نعم عرفته ...انه دراكولا....

3 ـ المكالمة

قال لها:
اشتقت إليك كثيرا ... أردت سماع صوتك ... والاطمئنان عليك وعلى نفسي ...
أرادت أن تتحرر من سؤال ألح عليها وملك كل جسدها ولكنه أغلق الخط ...

4 ـ الصديق

جلست أمامه دون استئذان... مدت يدها للعلبة أمامه وأخذت سيجارة ... أشعلتها وشرعت تدخن بشراهة ...طلب لها قهوة ... بعد صمت عميق غرقت فيه اصوات النادل واحاديث الرواد والضحكات المتناثرة هنا وهناك...اعتذرت بكلمات رقيقة عن تطفلها وحدثته عن حياتها وعملها واشتكت من الظروف القاسية والوحدة القاتلة التي تعيشها ... طلبت منه ان يكون صديقها...
سألته :
ـــــ هل تملك شقة في العاصمة؟
ـــــ لم أفكر في الاستقرار هنا؟
ـــــ هل تملك سيارة ؟
ـــــ لا ... لست في حاجة اليها؟
نهضت ...

5 ـ هروب

التقينا في الموعد المحدد ، تحدثنا، عطرنا حديثنا برائحة القهوة ، ولما نظرت الى ساعتها خلسة صمتت العصافير وطارت بعيدا .

6 ـ البحر

وقف، أمامه البحر أزرق لازوردي، ممتدّ يعانق الأفق، صحراء قاحلة ليس لها آخر، تراءت له على الضفّة الأخرى عمارات شاهقة وأنوار متلألئة وشوارع مزدحمة وسيارات ومغازات وواجهات بلورية مفقلة بالسّلع ودون أن يشعر ارتمى في البحر.

7 ـ التّحية

وقف على حافة الطّريق ينتظر الضوء الأخضر، الرجل منهمك في كنس الشّارع وجمع مايراه من علب فارغة وأكياس وبقايا سجائر، قال له:
ـ صباح الخير
ردّ التّحية ووقف وبعد أن رمى الأوساخ في العربة ثمّ تأمله مليا وقال له:
ـ هل أنت بخير؟

8 ـ المرارة

دخلت المقهى الوحيد في القرية، وقفت أمام الكنتوار وطلبت قهوة، وضعها العامل أمامي مع صفحة السّكّر، قلت له أشرب القهوة دون سكر، ظهرت علامات التعجّب على وجهه وابعد الصحفة، نظرت الى الوقفين فلاحظت أنّ كل واحد يضع في كأسه خمس أو ستّ قطع من السكر قلت لأحدهم:
ـــ هل تشربون قهوة ام سكرا؟
فقال لي :
ـــ أنت غريب عن هذه القرية، أنظر حولك هل هذه بيئة يطيب فيها العيش؟ حياتنا مرّة وتحسدنا على قهوة حلوة....

في انتظار الحافلة

صباح بن حسونة

-ها هو الشّارع الرئيسيّ يبسط أمامها فوضاه..
وهي على حافّته، ترى الحركة لا تكاد تنقطع. هالها أن ترى هذا العدد من الأفارقة يمرّون أمامها في مجموعات أو فرادى. يلبس أغلبهم ملابس خفيفة لا تناسب هذا الصّباح الممطر ولا برده. كانوا يحملون في أياديهم أكياسا بلاستيكيّة ويضعون على رؤوسهم باقتدار شديد صُررا وأشياء مختلفة فتظلّ ثابتة ولا تقع أبدا. استهوت بلدتهم القريبة من البحر هؤلاء المهاجرين من جنوب الصّحراء فسكنوا إليها واستقرّوا بغابات الزّيتون أين يمارسون حياتهم بشكل عاديّ في انتظار فرصة لركوب زورق من على أحد الشّواطئ القريبة والعبور إلى مدائن الحلم الرّاسية على الجانب الآخر من البحر.
يقترب منها أحد الأطفال ويمدّ أمامها نصف قارورة بلاستيكيّة فيها الكثير من القطع النقديّة الصّفراء وإن لم تخل من بعض القطع البيضاء.
- «سلام ماما».
يربكها لمعان عينيه ويتوغّل صوته ولكنته الغريبة في مكان ما داخلها فتمدّ يديها إلى حافظة نقودها تبحث عمّا يمكن أن تعطيه لهذا الطّفل الأسود الجميل الذي لا يتوقّف عن تكرار هذه الكلمة السّاحرة « ماما».
لن تخذله كما لم تخذلهم مدينتُها التي سارع العديد من سكّانها بمساعدتهم كلّ بطريقته وحسب مقدرته فوفّروا لهم الأكل والثّياب والأغطية الصوفيّة وقد كانوا على حافّة الشّتاء البارد يسكنون العراء ويلتحفون السّماء وأحلامَهم بالرّحيل السريع.
تركت لنفسها ثمن تذكرة الحافلة ذهابا وإيّابا ووضعت في نصف القارورة ما بقي ممّا وجدته في حافظتها فتهلّلت أسارير الطّفل وقال باسما: « شكرا ماما». في سرّها قالت سيعوّضني الله، ثمّ إنّهم قد يسلّموني متخلّداتي الماليّة نهاية هذا الشهر فأنا أقوم بالنّيابة في المعهد منذ أربعة أشهر ولم أتحصّل على مرتّبي بعد.
ربتت على شعر الطّفل بلطف ثمّ نظرت إلى ساعتها.الوقت يمرّ ولم تأت بعد، سأتأخّر عن الحصّة الأولى وسأتشاجر كالعادة مع المدير الذي يترصّد دوما تأخيري ويقول إنّني لست ملتزمة بالوقت.
«لم لا تغيّر لي جدول الأوقات لأتمكّن من الحضور في مواعيد حصصي؟ ما ضرّك لو جعلتها كلّها مسائيّة هكذا لن آتي متأخّرة أبدا «.و لكنّه أبدا لا يستجيب..
ليس هناك وسائل نقل غير الحافلة بين مدينتي والقرية التي أعمل بها، عليّ أن أنتظر حافلة السّاعة السّابعة التي تصل عادة بعد السّابعة والنّصف وتتوقّف كثيرا في الطّريق فلا أصل إلى المعهد إلّا بعد الثّامنة. الأمر إذا، ليس متعلّقا بي فأنا امرأة نشيطة وملتزمة بمواعيدي أغادر فراشي باكرا وأقف في انتظار الحافلة منذ السّابعة، لكنّها لا تأتي أبدا في موعدها !
كانت الأمطار قد بدأت في النّزول مجدّدا. رذاذ بارد يقوى حينا ويخفت أحيانا فتمتلئ جوانب الشّارع بالمياه. تزرّر الأستاذة معطفها وهي تنظر إلى ذلك الطّفل الذي ما يزال يمسك بقارورته ويمدّها إلى المارّة دون أن يهتمّ للمطر ولا للبرد الذي اكتسح الصّباح. كيف يحتملون البرد والعراء وأيّ حلم هذا الذي يجعلهم يهربون من أوطانهم ويعرّضون حياتهم وحياة أطفالهم إلى التشرّد والضّياع والموت القابع في الانتظار؟
أيقظها من تساؤلاتها مرور سيّارة أمامها تنز على الإسفلت أزيزا مزعجا وكأنّ صاحبها
أصابه مسّ من الجنون أو هو في غير حالات وعيه. قفزت بسرعة وابتعدت عن الرّصيف كما فعل الكثير من المارّة وهم يرمون السّائق المتهوّر بأقذع الشّتائم.
لم يهتمّ بشتائمهم بل لعلّه لم يكن يرى أمامه أحدا فقد صار يدور بالسيّارة ويحرّكها في جميع الاتّجاهات بسرعة غريبة فتخرج وابلا من الدّخان يعمي الأعين والنّاس يهربون من طريقه يبحثون عن مكان آمن لا تصل إليه السيّارة المجنونة..
تنفسّت الصّعداء هي وغيرها وهي تراه يبتعد بشرّه عنهم. قال رجل اختبأ خلف الشّجرة وهو في أشدّ حالات الغضب بعد أن تبدّد خوفه :
« اللّعنة عليه وعلى أمثاله ستكون ميتتهم شنيعة هؤلاء العابثون بحياتهم وبحياة الناس!»
قال آخر: «لا يمكن أن يكون في وعيه لعلّه سكران أو ربّما تعاطى شيئا من حبوب الهلوسة.»
أعادت النّظر إلى ساعتها وقد ازداد توتّرها وساءها أنّ الوقت يمرّ سريعا.
آخر الأسبوع الماضي توصّلت إلى إقناع المدير بتغيير جدول أوقات عملها بعد مناوشات كثيرة وتدخّلات من كاتب عام النّقابة الأساسيّة في المعهد. أمضت هذا الأحد سعيدة وغادرها خوفها الدّائم من الوصول متأخّرة وما يجرّه من انتقادات المدير وتهديداته المستمرّة بطردها وهي الأستاذة النّائبة التي انتظرت كثيرا حتّى استطاعت الحصول على هذا العمل المؤقّت علّه يساهم بعد ذلك في انتدابها نهائيّا في التّعليم.
أوّل حصّة لها اليوم تبدأ عند منتصف النّهار. على غير عادتها، نهضت دون قلق واستعدّت للخروج مطمئنّة إلى أنّها لن تجد صعوبة للتنقّل إلى المعهد وهي تملك الكثير من الوقت وها هي تقبع منذ العاشرة صباحا في هذا الشّارع وتغرق في مشاكله..
أصوات بائعي الخضر والأسماك المنتصبين على جوانب الشّارع يزاحمون المارّة ،تملأ المكان، الكثير من التّلاميذ يعبرون الطّريق في اتّجاه المعهد أو عائدين منه وصفّ من
السيّارات يتحرّك ببطء شديد. سيّارات وشاحنات بأرقام ودونها يملؤون الشّارع الرئيسيّ الضيّق الذي اختنق بما احتواه ففاضت منه روائح البنزين والسّمك مختلطة بالسّباب والشّتائم..
أصابها الدّوار وتوتّرت معدتها، كان الطفل الإفريقي الجميل قد عاد يتحرّك أمامها ويمدّ قارورته إلى المارّة. ربّما لاحظ توتّرها وشحوبها فقد اقترب منها وأعطاها حبّة من الحلوى نظرت إليها باستغراب في البداية ثمّ وقد لاحظت ابتسامة عينيه وسمعته يقول لها بعربيّة مكسّرة: « حوّاء ماما،حوّاء !»، أخذتها وهي تشكره وتضعها في فمها علّها تخفّف عنها بعض المرارة التي ما انفكت تتكوّن في حلقها منذ وقفت في هذا الجانب من الشّارع.
أخيرا توقّفت الحافلة في المحطّة. اتّجهت نحوها حاثّة سيرها حتى تتمكّن من إيجاد مقعد ولا تضطرّ إلى الوقوف طوال المسافة.
« الحمد لله سأصل في الوقت المناسب وسأرتاح من تقريع المدير وتهديداته! «
في تلك اللّحظة كانت السيّارة المجنونة تعود بنفس سرعتها لتقطع أمامها الطّريق فيتطاير الماء والأوحال من عجلاتها ويغرق ثياب الأستاذة ووجهها.
تسمّرت المسكينة في مكانها مشدوهة لا تعرف إن كان عليها ركوب الحافلة وهي على هذه الحال أم العودة إلى منزلها..